

أفعال رؤية العالم بين المتنبي والمعري في الرثاء

Worldview Acts in the Elegiac Poetry of Al-Mutanabbī and Al-Ma'arrī

د. سارة أحمد حسين سعد*

جامعة ذمار، اليمن

Dr. Sarah Ahmed Hussein Saad
Thamar University, Yemen



تاريخ النشر: 2026/06/15

تاريخ القبول: 2026/05/24

تاريخ استلام المقال: 2026/03/04

ملخص

هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن أفعال رؤية العالم التي تمثلت عند الشاعرين المتنبي والمعري في سياق الرثاء في قصيدة لكل منهما، واعتمدت الدراسة على المنهج التداولي الذي يحتوي إجراء الأفعال الكلامية، وتمثلت رؤية كلا الشاعرين في مقام الرثاء في تجسيد الذوات بأفعال متباينة، اقتضت سير البحث وفقا للملاحجها، لتكون تقسيماته على ثلاثة مباحث: أفعال رؤية العالم عند المتنبي، وأفعال رؤية العالم عند المعري، وبين المتنبي والمعري، وتمخضت الدراسة والتحليل عن تباين الرؤية بين المتنبي والمعري، ففي حين يجنح المتنبي إلى تقديس ذاته مخالفا لرؤية المجتمع حوله، وعدم رضاهم عن ذلك، ويصور العالم المثالي في ذاته، ويقصد إلى تجسيد ذلك باتجاه العالم إلى الذات، ليقدر الذات التي تمثل القيم والوجود، فإن المعري ينحى منحا آخر، إذ يتجه من الذات إلى العالم ليجسد الوجود والقيم والمثل وليس الذوات. وينتج عن ذلك إحداث الأثر في المخاطب من كلاهما بشكل مختلف.

الكلمات المفتاحية: أفعال الكلام؛ رؤية العالم؛ الرثاء؛ الاستراتيجيات التداولية.

Abstract

This study aims to investigate the acts of worldview construction as manifested in the elegiac poetry of Al-Mutanabbī and Al-Ma'arrī, through the analysis of one elegy by each poet. The research adopts a pragmatic approach grounded in speech act theory. In the elegiac context, each poet articulates a distinct worldview through divergent performative configurations of the self, which guided the analytical trajectory of the study. Accordingly, the paper is structured into three sections: worldview acts in Al-Mutanabbī's elegy; worldview

acts in Al-Ma'arri's elegy; and a comparative analysis between the two poets. the findings reveal a fundamental divergence in their respective worldviews. Al-Mutanabbī tends toward self-consecration, positioning himself in opposition to societal perceptions and their disapproval. He constructs an idealized world centered in the self, directing movement from the world toward the self, thereby sacralizing the self as the embodiment of values and existence. In contrast, Al-Ma'arri adopts an inverse orientation, moving from the self toward the world in order to represent existence, values, and ideals rather than individual selves. Consequently, each poet produces a distinct pragmatic effect on the addressee.

Keywords: Speech Acts; Worldview; Elegy; Pragmatic Strategies.

1. مقدمة

خُلِقَ الإنسان في هذه الحياة لمدة معينة، وجعله الله خليفة؛ لأجل تعميرها، والموت هو النهاية الحتمية له، ولأن الإنسان كائن اجتماعي فهو مرتبط بغيره على أكثر من صعيد، وبقدر قربه أو بعده من غيره يتأثر به ويحزن لفراقه، ولأن الفراق أمر حتمي، بسبب طبيعة الحياة، فقد لجأ الشعراء إلى البكاء والرثاء على من فارقوهم، وكل منهم في ذلك له رؤيته وطريقته في التعبير عن مشاعره، وقد كان المتنبي والمعري من الشعراء الذين لهم باع في هذا المنحى الحياتي الذي ارتبط بالذوات والعالم ارتباطاً وثيقاً، ووفقاً للظروف الشخصية والبيئية والثقافية والاجتماعية وغيرها من ظروف السياق تشكلت الحالات القصصية، واختلف تمثيل الأفعال الكلامية في سياقات الرثاء، من هذا المنطلق تم اختيار الشاعرين.

وتمت الدراسة باختيار قصيدة لكل منهما، فكان اختيار قصيدة المتنبي في رثاء جدته، كونها من أبرز القصائد التي مثلته في ذلك السياق، واختيار قصيدة المعري في رثاء رجل حنفي، إذ كانت رؤيته عن الموت والحياة متمثلة فيها بشكل لافت، وتمثل هذه الدراسة أهمية المقارنة بين شاعرين من عصر واحد، والنظر إلى تأثير الاعتقادات والأفكار والرؤى، وطريقة تمثيلها في النصوص.

وهدفنا إلى الكشف عن الأفعال الكلامية التي مثلت تلك الرؤى لكليهما، باستعمال المنهج التداولي الذي يتضمن أفعال الكلام التي تعد واحداً من الأدوات الإجرائية فيه، فضلاً عن الاستعانة بغيره من المناهج بحسب مقتضيات البحث.

ووفقاً لذلك جاء تقسيم البحث إلى ثلاثة مباحث، تم في المبحث الأول دراسة أفعال رؤية المتنبي للعالم، وقد تضمن رؤية المتنبي لذاته، وللمجتمع، وللمرثي، ثم رؤيته للموت والحياة، وتضمن المبحث الثاني دراسة أفعال رؤية المعري للعالم، الذي تضمن أيضاً رؤيته لذاته، وللمجتمع، والمرثي، ثم رؤيته للموت والحياة، وتضمن المبحث الثالث مقارنة بينهما. ثم تلا ذلك النتائج المستخلصة من البحث، يتبعها قائمة المصادر والمراجع.

2. تمهيد

1.2. الأفعال الكلامية (speech acts)

الإجراء التداولي في حقيقته رد فعل على عقم الوصفية وجمودها، وهو المخلص لعلم اللغة من ثباتها الخانق، فالإجراء التداولي منهجية مرنة من منهجيات القراءات السياقية التي تأخذ في حسابها عناصر الإيضاح والتوجيه والتقيد والإطلاق والإحكام من داخل النص وخارجه. فهي منهجية استيعابية لا تقف عند رصد الظواهر وتسكينها تصنيفيا في عقم وجمود لا يليق بالنص قبل ألا يليق بالمنهج (بليغ، 2017، ص 27؛ الرشدي، 2024).

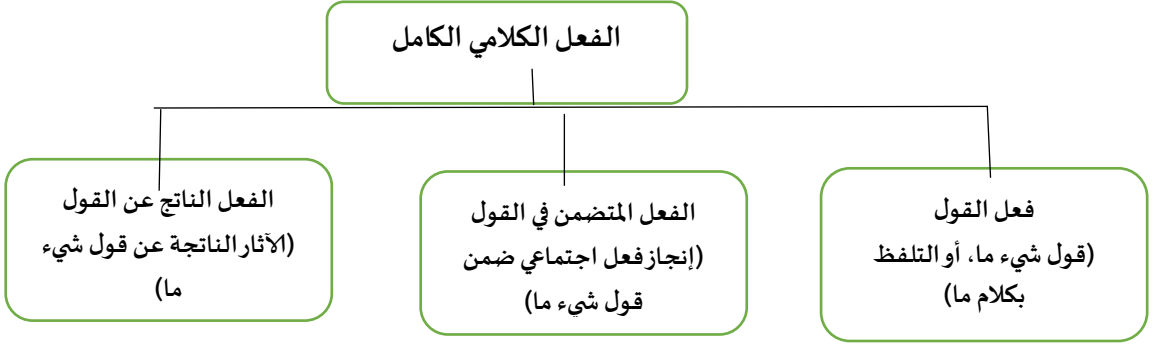
والفعل الكلامي مفهوم تداولي منبثق من مناخ فلسفي عام هو تيار الفلسفة التحليلية (بليغ، 2017، ص 16؛ الشمري، 2024) التي نشأت في العقد الثاني من القرن العشرين في فيينا على يد الفيلسوف الألماني جوتلوب فريجة (Gottlob Frege)، ثم اقتضى أثره الفيلسوف النمساوي فتنجشتاين (Wittgenstein)، الذي أسس منهجا جديدا أطلق عليه فلسفة اللغة العادية، ثم تلاه أوستين (Austin)، وسيرل (Searle) اللذان يمثلان المنهج الوظيفي التداولي الذي ظهرت في أحضانه فكرة البحث في الأفعال الكلامية.

وقد وضع أسس هذه النظرية إلى الفيلسوف الإنجليزي أوستين من خلال محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفارد عام 1952-1954م. إذ بين أن اللغة ليست مجرد وصف للوقائع الخارجية، ومعيار صدقها هو مدى تحققها، ويرى أن هذا المبدأ مغالطة وصفية لأنه يرى أن كثيراً من العبارات لا تصف العالم أو تقرر حقيقة، وإنما تنجز أفعالاً وتوقع أعمالاً (سليم، 2009، ص 23؛ بابكر، 2024).

وأفعال الكلام هي الأفعال المنجزة من خلال الألفاظ (يول، 2010، ص 81). وأننا في حالة تكلمنا ننجز شيئاً ما، أمراً يكون أوسع من مجرد التكلم (ديك، 2000، ص 227). ويعد قصد المتكلم هو الفيصل في التعرف على نوع الفعل الكلامي، الذي يحاول المخاطب أن يدركه، ويساعده على ذلك السياقات والظروف المحيطة باللفظ (يول، 2010، ص 82)، وتسمى بالمقام الكلامي أو السياق، ويمكن إدراج ذلك فيما يسمى بالعملية التخاطبية ككل، وهي تتضمن المتكلم والمخاطب والسياق بكل أبعاده.

والفعل المنجز بحسب أوستين يتكون من ثلاثة أفعال مرتبطة هي: الفعل التعبيري (locutionary act)، وهو فعل اللفظ الأساس، أو الفعل القولي، والفعل الثاني هو الفعل الوظيفي (illocutionary act) ويسمى الفعل الإنجازي، وبه ينجز المتكلم ما يقصده من خلال اللفظ التواصل،

أما الثالث فهو الفعل التأثيري (perlocutionary act) الذي يكون نتيجة للفعل المنجز، وهو غاية المتكلم ومقصده، وبه يتحقق الفعل وينجح، إذ هو دلالة الفهم والإفهام بين المتكلم والمخاطب (يول، 2010، ص 82-83). ومخطط هذا التقسيم كالآتي (صحراوي، 2005، ص 43؛ حسان 2021):



ويصنف أوستين أفعال الكلام من حيث الوظيفة إلى خمسة تصنيفات هي: الإعلانات (declarations)، والممثلات (representatives)، والمعبرات (expressives)، والموجهات (directives)، والملزومات (commissives).

ويقسم أفعال الكلام من حيث البنية إلى نوعين: فعل كلام مباشر، وفعل كلام غير مباشر، فكلما وجدت علاقة مباشرة بين البنية والوظيفة يكون فعل كلام مباشر (direct speech act). فعند استعمال البنية الخبرية لتكوين جملة خبرية فعل كلام مباشر، وعندما لا توجد علاقة مباشرة بينهما يكون فعل كلام غير مباشر (indirect speech act).

واستطاع أن يبين أن فكرة معنى القول لا تكون في حالة تمثيلية للعالم بمعزل عن تلفظه، ودراسة المعنى يجب أن تتعد عن التراكيب الجوفاء، وأدخل مفهوماً محورياً في التداولية هو مفهوم العمل اللغوي، في كتابه (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، وأوضح أن اللغة تستعمل لوظائف كثيرة حسب السياق، ونستعمل الكلام ذاته لتأدية فعل بعينه، إذ يرى أن اللغة في التواصل ليس لها وظيفة وصفية، بل لها وظيفة عملية، فإذا نستعمل فإننا لا نصف العالم بل نحقق أعمالاً هي الأعمال اللغوية (موشلار؛ ريبول، 2010، ص 22).

ويحاول توضيح هذه الأفعال بقوله: «إن إنتاج فعل قولي وفق معنى مختلف ومن ثم فعل إنشائي، معناه إنتاج قول ثالث أيضاً، فالتلفظ بشيء يؤدي أحياناً إلى آثار ما على الأحاسيس والأفكار وأفعال المستمعين أو على من يتكلم أو أشخاص آخرين أيضاً، بناء على هذا يمكننا القول بأن الشخص

الذي يتكلم أحدث فعلا، إما بأن يحيل على نحو غير مباشر إلى فعل القول أو الإنشائي أو لا يحيل قط، سنسعى هذا الفعل فعلا تأثيريا أو تأثيرا» (أوستين، 2010، ص 89).

ومن بعده قام سيرل. الذي يعد من أبرز تلاميذ أوستين بتطوير نظرية أستاذه، وشمل ذلك التطور بُعدين من أبعادها هما: المقاصد والمواضع. وتكرست جهوده في نظرية أفعال الكلام من خلال محورين متكاملين الأول خصصه لتحليل شروط نجاح الفعل الكلامي، والآخر مداره حول اقتراح نمذجة عامة لأفعال الكلام (ختام، 2016، ص 90؛ الجبني، 2025). ومن ثم فقد وضع أصول النظرية أوستين وأقام بناءها سيرل، ووسع مجالها غرايس، وهي في مجملها تبني على أن الجمل اللغوية لا تنقل مضامين مجردة، وإنما تؤدي وظائف تختلف باختلاف السياقات والمقامات المتنوعة (عبد الرحمن، 1998، ص 260).

وقد أصبح الفعل الكلامي نواة مركزية في كثير من الأعمال التداولية، وفحواه أنه كل ملفوظ يهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وفضلا عن ذلك، يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية كالطلب والأمر، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي، كالرفض والقبول (صحراوي، 2005، ص 40). وتؤكد نظرية الفعل الكلامي طبيعة الفعل في اللغة، وتكون الأسئلة المحورية التي يعرض لها منظر الفعل الكلامي في ظواهر لغوية هي:

- ماذا نفعل حين نتكلم؟ وماذا نفعل ونحن نتكلم. وبهذا لا يوجد فيها تناقض بين الفعل والكلام (لانج، 2012، ص 21). فنحن حين نتكلم فإننا نفعل دائما أكثر مما نتكلم فقط، أي نحوي، ونطرح الأسئلة أو نجيب عنها، ونقدم اقتراحات، ونحفز أو نقنع، بيد أن أنه بعد هذه التجربة البينية الأولى، لم تتم بعدها التجربة الفكرية (لانج، 2012، ص 25).

2.2. رؤية العالم

تباين وجهات النظر حول مفهوم رؤية العالم بحسب التوجهات التي تأتي منها تلك الرؤية، فهي بوصفها مقولة فلسفية ونقدية بالغة الأهمية تمثل تصورا جماعيا يتجاوز الرؤية الفردية، ليضع طبقات المجتمع في صراع درامي أحيانا كثيرة، فهي متناقضة عقليا وشعوريا ومصلحيا. وهي مجموعة من التطلعات والإحساسات والأفكار التي توحد أعضاء مجموعة اجتماعية، وفي الغالب أعضاء طبقة اجتماعية، وتجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخرى (بوخالفة، 2018، ص 173).

لقد وظّف الإنسان عقله توظيفاً متعددة ضروبه ونشاطاته لمعرفة الذات الإنسانية وحقائق الوجود عامة، وهكذا تكونت لديه قيم ومفاهيم لهذا الكون، سرعان ما ترسخت في ذهنه، وأصبحت شيئاً

ضرورياً لحفظ توازنه وبقائه وتجنبه شرّ الفناء والتلاشي (بوبيعو، 2001، ص 26).

إن كل الأعمال الأدبية تقريباً تمتلك وظيفة نقدية تقويمية إزاء واقع إشكالي، إنها تنشئ كونا ثريا ومتعددا من الشخصيات الفردية والمواقف الخاصة، كونا ينتظمه تماسك هيكلي ما، ورؤية للعالم، بحثا عن قيم أصيلة في عالم منحط (بوخالفه، 2018، ص 173).

وإن أي شاعر في أي زمان أو مكان لا نتصوره حين ينظم شعراً إلا منطلقاً من ذاته، ومن رؤاه الخاصة ليخرج هذا الشعر بعد ذلك إلى العالم الخارجي، أي إلى غيره، وهذا الآخر منفصل عن ذات الشاعر، ولكنه قد ينسجم مع ما تنتجه هذه الذات من رؤى ومشاعر، ومن ثمة فقد يؤثر بشعره في هذا الآخر الذي هو السامع أو المتلقي، لا لأن الشاعر قد ألف شعره خصيصاً لذلك الآخر، على الرغم من ارتباط الشاعر بمفاهيم مجتمعه، ولكن لأن هذا الآخر قد وجد في ذلك الشعر، الذي هو منتج فردي، صدى مؤثراً في نفسه؛ لأن الشاعر ليس فرداً منعزلاً بل إنه يعيش ضمن مجتمع قبلي يؤثر فيه ويتأثر به (بوبيعو، 2001، ص 19).

فالشاعر غالباً كما المثقف لم يعد تلك الأداة المسخرة، والمنتج لخطاب مكرر ومزيف، بل أصبح قادراً على التقاط المعرفة الموضوعية؛ لأنه يستطيع التحرر من الانتماء الطبقي، والتعالي على المصالح الخاصة بهذه الطبقة أو تلك، فقد أصبح مشحوناً بإرادة التغيير، إنه مشبع برؤية ثقافية متبصرة تؤهله لاستشراف مجتمع غير طبقي، تعايش فيه القيم الجمالية والأخلاقية. فهو كائن تقويضي تفكيكي، يهدم عوالم منجزة ليبني أخرى في حالة صيرورة، متحولة باستمرار (بوخالفه، 2018، ص 172).

ومن ثم فالشاعر يتصور العالم وفقاً لجملة من القصديات والأفكار التي تعتمل في ذهنه، بقصد تمثيلها للآخر، وذلك التصور قد يتفق مع الرؤية المشتركة بين المتكلم والمخاطب وقد يختلف، وبقصد تمثيل تلك الرؤى ينجز الشاعر أفعال كلام تصورها، فتتجسد رؤية الشاعر للعالم بأفعال قصدية مثلها بمتوالية من الألفاظ والبنى والأساليب، ووفقاً لها تجلت رؤية الذوات المتجسدة في النص في سياق الرثاء، وأنتجت أفعالاً تهدف إلى إحداث أثر في الآخرين، وتغيير قناعاتهم.

3.2. الرثاء

هو من الأغراض التي عرج عليها أغلب الشعراء في العصور المختلفة، وهو من الموضوعات التقليدية التي رافقت الإنسان بحكم طبيعة الحياة والموت، والرثاء في الأدب العربي وفي التراث ثلاثة ألوان هي النذب والتأبين والعزاء، والنذب هو بكاء الأهل والأقارب ومن يحبهم وينزلهم منزلة أهل حين يعصف بهم الموت، فيئن الشاعر ويتفجع، وينظم الأشعار يبث فيها لوعة قلبه وحرقة، أما التأبين فهو أقرب إلى

الثناء منه إلى الحزن الخالص، إذ فيه يقوم الشاعر بتشديد أمجاد من يفقده، ويسجل أفضاله إذا كانت له مآثر وبطولات، فيصور خسارة الناس بفقده، ومن ثم يعد التأين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعي، والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأين، إذ يجنح الشاعر إلى التفكير في حقيقة الموت ويتجاوز حادثة الموت الفردية نفسها، وقد يصل به الأمور إلى معان فلسفية عميقة، منها فلسفة الوجود والعدم والخلود (ضيف، 1987، ص 5-6). وفي هذا النوع تباينت رؤية الشعراء والأدباء، وطرق تمثيلها وإنجازها.

4.2. السياق والقصدية

السياق من الأمور المهمة التي ركزت عليها التداولية، إذ يؤكد فيرث (Firth) أهمية السياق الذي يتكون من مجموع العناصر المكونة للحدث الكلامي، وتشمل هذه العناصر التكوين الثقافي للمشاركين في هذا الحدث، والظروف الاجتماعية المحيطة به، والأثر الذي يتركه على المشاركين فيه، وبذلك لا يقتصر السياق عنده، على السياقات اللغوية فحسب، بل يشمل أيضاً السياق الثقافي، وأقوال المتخاطبين، وغير المتخاطبين، وأفعالهم، وكل الأشياء المتصلة اتصالاً وثيقاً بالقولة المستعملة، وتأثير الحدث اللغوي (علي، 2004، ص 31؛ واصل، 2020). ويمثل العالم والوقائع حولنا الخلفية السياقية قبل القصدية التي تؤثر في تكوين الحالات القصدية والذهنية، وتعكس تصوراً عن هذه الأمور تتمثل في الذهن بالاعتقادات والمشاعر والرغبات، وفي ضوء تلك الحالات والتمثلات يقوم المتكلم بتمثيلها إلى أفعال كلامية وفقاً لقصوده التي أرادها أن تصل إلى مخاطبه الذي تربطه به خلفية معرفية مشتركة يبني عليها المخاطب عند محاولة فهم تلك القصود، وفي الخلفية السياقية أن الشاعرين عاشا في العصر العباسي الذي اتسم بالاضطراب السياسي، والتدخل الخارجي من قبل الأتراك والفرس في شؤون المسلمين وفي تسيير أمور دولتهم، وفي المقابل تداخلت الثقافات، وكان الأمراء يشجعون الشعراء، فحدث تطور في جانب الأدب والشعر، ولأن في كل تواصل لسانی ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها، ومتفق عليها بينهم فإن هذه المعطيات كانت الخلفية قبل القصدية للمتخاطبين قيب التفكير والتمثيل لرؤاهم وأفكارهم. وتشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل، وهي محتواة ضمن السياقات والبنى التركيبية العامة (صحراوي، 2005، ص 30-31). ويرى التداوليون أن الافتراضات المسبقة ضرورية ذات أهمية قصوى في عملية التواصل والإبلاغ، لأن المتكلم يفترض أن المخاطب على علم بالمعلومات اللازمة التي تؤهله لفهم قصده، وهي لا تُضمّن في الخطاب، لكنها معلومة مسبقاً من الخلفية المشتركة لأطراف الخطاب التي تتيح نجاح عملية التواصل بينهما. والافتراضات المسبقة تشمل مجمل

التقاليد العرفية واللهجية والنظم والقوانين لمجتمع المتكلم، ويستند إليه القصد عند تمثيله (الورافي، 2020، ص 101) بالفعل الكلامي. وبالنظر إلى الخلفية قبل القصيدة لكلا الشاعرين يفترض السياق أنهما عاشا في مدة زمنية متقاربة، إذ إن المتنبي توفي عام (354هـ)، والمعري ولد عام (362هـ)، وهما ينتميان إلى العصر الأدبي نفسه، ويُعد المتنبي أستاذا للمعري، والمعري تلميذه؛ لأنه ولد بعد وفاته، وتأثر به، وشرح ديوانه وسماه (معجز أحمد)، وكان إذا قرأ بيت المتنبي:

أنا الذي نظراً لأعنى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ

يقول: أنا الأعنى، ومن ثم فالبيئة الاجتماعية والسياسية لكليهما واحدة، لكن اختلفا في الظروف الشخصية والأسرية، وهذا الاختلاف شكّل فارقاً في اعتقاداتهما، ومشاعرهما، ورغباتهما، أي في الحالات القصيدة لكليهما، نتج عنها تمثيل تلك الحالات بأفعال كلامية مثلت القصد التي أفرزتها كل العوامل السابقة، إذ إن الأفعال القصيدة تتمثل بخطة مرتبة ومنطقية وتدرج بدءاً من الخلفية قبل القصيدة، ثم الحالات القصيدة، ثم تمثيلها بسلسلة من الأفعال الكلامية الجزئية التي تنجز قوة، أو قوى متعددة مباشرة أو غير مباشرة تفضي إلى فعل قصدي كلي هو ما أراده المتكلم، ففي حالة المتنبي يفترض الواقع الشخصي والسياق أنه عاش يتيماً ترعاه جدته التي مثلت كل أهله، لكنها كانت حكيمة وقوية، فقد اهتمت بتعليمه وتهذيبه، وإرشاده إلى طريق العلا والمجد، وكانت تدفعه إلى كل ذلك، وتغرس في نفسه الشجاعة والبأس، هذا الوضع غرس في نفسه حب ذاته، وتعاليه، وتطلعه الدائم إلى المكانة العليا والشرف والسؤدد، في حين أن الافتراض المسبق والسياق الشخصي للمعري أساسه الواقع المأساوي الذي عاشه، من فقدته لنظره، ثم فقد أباه، الأمر الذي جعله يعمم رؤيته لكل الأحداث من حوله، والواقع الاجتماعي حوله الذي يشهد حالة من الترف والبعث عن الدين.

ففي قصيدة المتنبي يفترض السياق فقد المتنبي لأقرب الناس إليه وهي جدته التي تمثل كل أهله، وهو قبل ذلك الحدث لا يلتفت إلى الموت أو الرثاء بكل مفرداته، فهو مشغول بنفسه، وبكل ما يمكن أن يجعله في قمة الهرم، فكان يعتقد بحكمته وقوته وقدرته، واختلافه عن غيره، وفي ذلك يقول:

فَمَا الْحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ قَدْ يُوجَدُ الْجَلْمُ فِي الشُّبَّانِ وَالشَّيْبِ

يفترض الخطاب أنه ما زال صغيراً، ويقصد مدح نفسه بالصفات التي يفخر بها أي عربي، وينجز فعله بالفعل الإخباري للتأكيد والتقرير، وهذه الرؤية والاعتقاد تمثلت بكثير من الأفعال في خطابه، إذ كانت هي المحور الأول فيها، ومن ذلك قوله:

أُبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي فَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحاً وَهُوَ أَنَا

وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا
مُحَسَدُ الْفَضْلِ مَكْدُوبٌ عَلَى أَثَرِي أَلْقَى الْكَيْيَ وَيَلْقَانِي إِذَا حَانَا
لَا أَشْرَبُ إِلَى مَا لَمْ يَفُتْ طَمَعًا وَلَا أُبَيْتُ عَلَى مَا فَاتَ حَسْرًا
وَلَا أُسْرِبُ مَا غَيْرِي الْحَمِيدُ بِهِ وَلَوْ حَمَلْتُ إِلَيَّ الدَّهْرَ مَلَانَا
لَا يَجْدِبُنَّ رِكَابِي نَحْوَهُ أَحَدٌ مَا دُمْتُ حَيًّا وَمَا قَلَقُنْ كِبَرَا

كانت هذه هي سياقات أفعاله، وقصوده بالفخر بنفسه ومدحها والتغني بها في كل السياقات، إلى أن حدث أن توفت جدته، تغيرت رؤيته ورغبته وشعوره في تلك اللحظات التي تمثلها الطبيعة البشرية حين تكون في ضعفها، كما سيتضح ذلك لاحقاً، لكنها ما لبثت أن تراجعت وعادت إلى سابق عهدها.

وفي قصيدة المعري يفترض المتكلم وجود واقع يطغى عليه الموت والحزن، وفضلاً عن ذلك فهو يعاني من عاهة العمى التي أفقدته الرؤية البصرية للعالم حوله، لكنها منحته رؤية ذهنية تصويرية لما حوله تختلف عن غيره، هو يعتقد ويرى أن العالم محاط بالسواد والموت، ويشعر بالتشاؤم والتعب فيه، ويرغب في تركه، ويقصد تحذير الناس منه، فهو ليس مكاناً صالحاً للراحة والمتعة، بل هو موت مؤجل، يأتي على الجميع، وليس على الناس إلا التطلع إلى هذا المصير، والفرح بقدمه؛ لأنه أفضل من البقاء والحياة. يقول:

تَعَبْتُ كُلَّهَا الْحَيَاةَ فَمَا أَعُدُّ جَبُّ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ارْتِدَادِ

وينقم على أبيه الذي كان سبباً في وجوده، ويرى أنه السبب في تعاسته ومعاناته، وفي ذلك يقول:

هَذَا جِنَاةُ أَبِي عَلِيٍّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ

يقصد من الفعل الإخباري تحذير المخاطبين من الزواج، ومن التناسل؛ لأنهم يتسببون في معاناة أولادهم، واللافت للنظر أن المعري لم ينقم على أمه كما نقم على أبيه، على الرغم من أنها سبب مباشر في وجوده (عبدالرحمن، 1965، ص 25)، إذ يقول في رثائها (المعري، 1957، ص 39):

مَضَتْ وَقَدْ اكْتَهَلَتْ فَخَلَّتْ أَنِي رَضِيعٌ وَمَا بَلَغَتْ مَدَى الْفُطَامِ

يتوجع ويتألم لفقد أمه، بفعل الإخبار التعبري ليؤكد شعوره بالأسى على فراق أمه؛ لأنه لم يكن يستغني عنها، ولا أحد يستغني عن أمه، لكنه أخص من غيره؛ بسبب إعاقته وعجزه، فهو ينقم على الأب دون الأم؛ لأن الأب من يسعى إلى الزواج، ولولا ذلك لما تحملت الأمهات مسؤولية الأبناء، ولما عانى الأبناء في هذه الحياة. وبهذا القصد كانت خطاباته في رثاء أمه، يقول في موضع آخر (المعري، 1957، ص 45):

وَلَوْ أَنَّ النَخِيلَ شَكِرَ جَسْمِي ثَنَاهُ حَمْلَ أَنْعَمِ الْجَسَامِ

كفاني ربه من كل ريّ إلى أن كدت أحسب في النعام

ويقول:

العيش ماض فأكرم والديك به والأم أولى بإكرام وإحسان
وحسبها الحمل والإرضاع تدمنه أمان بالفضل نال كل إنسان

أما في سياقات الرثاء الأخرى فهو يمثل رؤيته واعتقاداته عن العالم والحياة والموت وما بعد الموت، فهو يبت فلسفته ورؤيته في كل ذلك، ويمثلها بأفعال مختلفة تنجز قوى متعددة تناسب قصوده التي أرادها أن تصل إلى المخاطبين، وسيتم التعرّيج عليها في المباحث اللاحقة.

3. أفعال رؤية العالم عند المتنبي

1.3. أفعال رؤية الذات

الذات هي الوحدة المصغرة في الوجود والكون، وهي مع غيرها تمثله، وتجسد معلمه وأبعاده وفقاً لاصطلاحات وثقافات يعكسها كل جزء من العالم. وفي ظاهرة الدراسة التي نحن بصدها يتمثل العالم بالمجتمع العربي والثقافة المحيطة به لكل من المتكلم والمخاطب، فالمتكلم يدرك الأبعاد والأفكار والاعتقادات التي تمتلكها الذات في المجتمع العربي آنذاك، إذ إن الذات جزء من كون اجتماعي له ثقافة وسلطة، وتلك السلطة تحتم عليه النظر بمنظورها.

المتنبي يصور العالم المثالي في ذاته، ويقصد إلى تجسيد ذلك باتجاه العالم إلى الذات، ليقدم الذات التي تمثل القيم والوجود، فهو يعتقد بأنه مختلف عن الآخرين مميز عنهم، وقد كانت لديه كفاية لغوية وعلمية تؤهله لذلك، فقد تلقى منذ صغره تعليماً خاصاً مع أولاد أشرف الكوفة من العلويين (شاكر، د.ت، ص 152)، وهذا الأمر منحه ثقافة واسعة، ومعرفة ثاقبة، من خلالها استطاع أن يمتلك أداة قوة أسهمت في تكامل الشخصية المتعالية التي ترى لنفسها الأفضلية، فضلاً عن طبيعته الفطرية في التسامي بالنفس، هذا الاعتقاد تجلّى في قصود تمثلت في أبيات شعرية ترجمها بأفعال كلامية احتلت مساحة كبيرة من نصوصه، وتمثل ذلك بالتعالي وعدم قبول الآخر ندّاً له، وقصد آخر تمثل في إيصال هذا القصد إلى المخاطب (سعد، 2024، ص 29-30)، والتأثير فيه، فمن ذلك قوله في صباه (البرقوقي، 2014، ص 930): [الطويل]

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِ بِمَا وَكَانَهُ فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَمَا أَحَدٌ مِثْلِي
وَذَرْنِي وَإِيَّاهُ وَطَرْفِي وَذَائِلِي نَكُنْ وَاحِدًا يَلْقَى الْوَرَى وَانْظُرْ فِعْلِي

الفعل التوجيهي هنا يصور رؤية الذات التي تتيح له هذا الاستعمال، وينجز به فعل التعالي والتفاخر، واحتقار الآخر، ونفي المساواة التي هي من فرضيات المجتمع الإسلامي، وتتأكد رؤيته المغايرة لغيره بقوله

(فَمَا أَحَدٌ فَوْقَ وَمَا أَحَدٌ مِثْلِي)، هذا الوصف يتنافى مع الرؤية في الخلفية المشتركة لطرفي الخطاب، إذ هو في العالم لا يشير إلى الصفات البشرية، لكن الانحراف في الاستعمال اللغوي يقصد إلى رؤيته المتعالية ورفض المساواة بغيره، وهو ما يتعارض مع القيم الدينية التي ينتمي إليها هو وغيره التي تحض على المساواة، وأن التفضيل لا يكون إلا بالتقوى، وهو بذلك يجانب الثقافة الدينية الرابطة بين شركاء الخطاب، وكان هذا اعتقاده عن نفسه في كل حالاته، ورؤيته لها في كل المواقف التي مر بها، ويرى أنه لم يصل إلى المكانة التي يستحقها، وفي موقف الرثاء، وموقف الضعف، يتمثل هذا القصد وتلك الرؤية، بفعل رفض الاستسلام، والدفع بها إلى تجاوز هذا الشعور، وفي ذلك يقول:

تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعْظَمًا غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا
وَلَا سَالِكًا إِلَّا فُؤَادَ عَجَاجَةٍ وَلَا وَاحِدًا إِلَّا لِكَرَمَةِ طَعْمًا

يتجلى في موقف الرثاء تراجع في رتبة التعالي والنظر من الأعلى للذات، ولم تقل تلك الدرجة إلا في هذا الموقف، فالمتنبي في هذا النص ينجز فعل رفض الاستسلام ويقنع نفسه، بجعلها مخاطبا في عملية حوارية بينه وبينها ليثبتها ويقنعها، ويؤكد تمسكه بقوته ويرفض الضعف، لتحفظ ذاته بالعلو والمكانة التي تليق بها، ثم يمثل ذلك بالحوار التواصلي مع غيره في إطار العملية الحوارية نفسها ليصل إلى القصد نفسه، وقصد آخر هو ألا يدع مجالا لغيره من الشماتة فيه، والنيل منه، يقول:

يَقُولُونَ لِي: مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ؟ وَمَا تَبْتَغِي؟ مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسَمَى
كَأَنَّ بَيْنَهُمْ عَالَمُونَ بَيْنِي جُلُوبُ إِلَهُمُ مِنْ مَعَادِنِهِ الْيُثْمَا

ثم يتمحور الخطاب حول الذات، حول الاعتقاد بقوتها وتفرداها، وإنجاز قصد الفخر والمدح والاعتداد بالأفعال الإخبارية التقريرية التي تتضمن أدوات وآليات تسهم في تمثيل القصد، نحو الفعل التوجيهي الاستفهامي الذي أنجز قوة مباشرة هي السؤال، وتجاوزها إلى أخرى غير مباشرة هي الفارق بين ذاته والآخرين، وأنهم أقل من أن يصلوا إلى إدراك مقاصده، وكالتقابل (الماء والنار)، والتكرار (الجمع، أجمع)، فضلا عن التأشير للذات بضمائر الحضور (في يدي، أجمع، ولكنني، مستنصر، مرتكب، جاعل، تحيتي، لست، عزمي، إني، نفوسنا، أنا، بي، تعزني، صحبتني) للتأكيد والتقرير والإقناع.

وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجِدَّ وَالْفَهْمَا
وَلَكِنِّي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْغَشْمَا
وَجَاعَلُهُ يَوْمَ اللَّقَاءِ تَحِيَّتِي وَالْأَفْلَسْتُ أَلَسَّيْتُ الْبَطْلَ الْقَرَمَا
إِذَا فَلَّ عَزْمِي عَنْ مَدَى خَوْفٍ بُعْدِهِ فَأَبْعَدُ شَيْءٍ مُمَكِّنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمَا

وَإِنِّي لِمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَنَا بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا
كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا إِذَا شِئْتَ فَادْهَبِي وَيَا نَفْسُ زِيْدِي فِي كَرَائِمِهَا قُدَمَا
فَلَا عَبَرْتُ بِي سَاعَةً لَا تُعْرِزُنِي وَلَا صَحَبْتُنِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلْمَا

متوالية من الأفعال الكلامية شكلت منظومة من القيم والأخلاقيات التي كان المتنبي يفاخر بها، ويرى أنه أحق من غيره بأمور لم يستطع الوصول إليها، فقولته (وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي)، فعل تقريرى استلزم قوة إنجازية غير مباشرة، هي الفخر بالشجاعة وقوة التحمل، فضلا عن استحقاق الامتياز، والاستدراك بـ(لكن) الذي تجاوز الاستدراك إلى توضيح منابع الشجاعة، وتهديد الآخر. ثم الانحراف اللغوي في قوله (فَلَّ عَزْمِي) الذي جمع آلة الشجاعة الحسية بآلة الشجاعة المعنوية ليقصد استحالة الاستسلام، والتمسك بالحق المشروع لذاته. وتتوالى الأفعال المختلفة لتأكيد الرؤية نفسها، والقصد نفسه في أعلى ترابته:

وَإِنِّي لِمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَنَا بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا
كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا إِذَا شِئْتَ فَادْهَبِي وَيَا نَفْسُ زِيْدِي فِي كَرَائِمِهَا قُدَمَا

2.3. أفعال رؤية المجتمع

يؤثر السياق الاجتماعي في الحالات القصصية للمتكلم، ويعد الخلفية قبل القصصية، التي تسهم في التأثير في تصور اعتقادات أو مشاعر أو رغبات لدى المتكلمين، ويمثل الخلفية المعرفية التي تسهم في فهم الخطابات التي قيلت فيها، ويمكن القول إن «المنجز اللفظي هو نتاج عوامل اجتماعية وفكرية وثقافية لها فاعليتها في تشكيل لغة الاستعمال وتداولها ومن ثم انعكاس آثارها في توليد خطاب متنوع تصنعه تلك السياقات المختلفة المحيطة بالنص وإنتاجه» (السعيد، 2022، ص 18). ففي تحليل الخطابات، وتأويلها يتم الرجوع إلى الواقع المجتمعي، ولذا سُمي السياق بالمرجعية الواقعية (علي، 2016، ص 40). وفي حالة المتنبي، وخطابه في الرثاء، يتجلى السياق الاجتماعي، وتتمثل أفعاله، لتظهر رؤيته تجاهه، يقول:

لَكَ اللَّهُ مِنْ مَفْجُوعَةٍ بِحَبِيبِهَا قَتِيلَةً شَوْقِي غَيْرُ مُلْحِقِهَا وَصَمَا

يوظف المتنبي فعلا خبريا يحمل قوة إنجازية غير مباشرة، ويتمثل ظاهرة اجتماعية يتم مراعاتها من قبل المتكلم وهي أن التي تموت بسبب حبها يلحقها وصمة العار، ليصل قصده إلى المخاطب الذي يشترك معه في الخلفية المعرفية لقوانين المجتمع وعاداته، وفي تمثيل فعله ينفي عن جدته كل ما قد يُشِينها، ليقصد فعل تمجيدها وتعظيمها، يقول:

فَأَصْبَحْتُ أَسْتَسْقِي الْعِمَامَ لِقَبْرِهَا وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَسْقِي الْوَعَى وَالْقَنَا الصُّمَّا

المحتوى القضوي للفعل الكلامي هو ظاهرة اجتماعية كانت تحدث في أوساط المجتمع، إذ كان الناس يعتقدون بها لأجل موتاهم، والمتنبي هنا يشارك اعتقادات مجتمعه في سياق الرثاء، إذ الفعل هنا يتضمن افتراضاً مسبقاً هو أنه كان لا يؤمن بهذه الرؤية ولا بتلك المعتقدات؛ ويتأكد هذا القصد بالفعل (أصبح) الذي يفيد التغيير، بعد أن قال (كنت)؛ لأن ثمة ما كان يشغله، وهو طلب المجد والعُلا في مواطن الحرب، والفعل الإخباري ينجز قوة غير مباشرة هي الحزن والأسى لفقد جدته، والحنين إلى لقاءها، فقد كانت هي كل أسرته، وهي التي ذكرها في نصوصه، وعلاقته بها تجسد الرابط الأسري المقدس، يقول:

فَوَا أَسَفَا أَنْ لَا أَكِبُّ مُقَبِّلاً لِرَأْسِكَ وَالْصَدْرِ اللَّذِّي مُلِنَا حَزْماً

وثمة مظاهر مجتمعية تتمثل في أفعاله، أظهرها موقف الحزن والرثاء، مثلت رؤية المجتمع واعتقاداته، وهي التفاخر بالأباء والأنساب، وإن كانت لا تمثل رؤيته العامة في غير سياق الرثاء، إذ إنه لا يعتقد بهذا ولا يراه، فهو يعتقد أن قيمة المرء هي نفسه وفعله وليس نسبه وأبائه، يقول في هذا النص:

وَلَوْلَمْ تَكُونِي بِنْتُ أَكْرَمَ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخَمُ كَوْنِكَ لِي أُمًّا

هو هنا يعرج على رؤية المجتمع بالفخر بالأباء، وينجز هذا الفعل الإخباري قصد تأبين جدته وتعظيمها، والفخر بنفسه، وهذا دأبه في مواضع كثيرة، ففي سياق الضعف والحزن ذاته حاضرة، ورؤية الفخر بالأباء ينافي رؤيته واعتقاداته التي تخالف المجتمع، يمثل ذلك خطابه الآتي (البرقوقي، 2014، ص 386):

لَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
وَبِهِمْ فَخَرُّكُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّأً دَ وَعَوُذُ الْجَانِي وَغَوُثُ الطَّرِيدِ
إِنْ أَكُنْ مُعْجَباً فَعُجِبُ عَجِيبٍ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ
أَنَا تَرَبُّ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي وَسِمَامُ الْعِدَا وَغَيْظُ الْحَسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكُهَا اللَّهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ

إن طبيعة الإنسان هي طبيعة إنسانية خيرة، وجُبلت على تمجيد القيم السامية، وتفضيل كل ما له علاقة بالمروءة والشهامة، التي هي من أصل العربي، غير أنه يضطر أحياناً للتعامل مع القيمة بوجهها الآخر، استجابة لرغبات ذاتية أو اجتماعية في الإعلان عن وجوده، وعن مكانته، وهيمنته، وهذا ما يولد لديه إما استهتاراً بتلك القيم أو خروجاً عن المؤلف فيها لبلوغ غاية تبدو له جوهرية. هذه هي رؤية المتنبي لمجتمعه، إذ له رؤية خاصة واعتقاد لا يكون فيه تابعاً لغيره أو لمجتمعه إلا ما يريد، وظهر تأثره بمجتمعه في سياق الرثاء، أما في السياقات الأخرى فقد كان اعتقاده ورؤيته هو ما يفعله، ويقصد أن يؤثر في مخاطبه ليعتقد أنه منفرد عن غيره مميز عنهم.

3.3. أفعال رؤية المرثي

المرثي هو الذي قيل لأجله النص، والفعل الكلي في القصيدة هو رثاء هذا الشخص، وتتفاوت رؤية المتكلم إليه بحسب القرب الوجداني من نفسه، ففي حالة المتنبي، المرثي هي جدته، والخلفية السياقية تذكر أن هذه الشخصية كانت أقرب إنسان إلى المتنبي، ولذا تمثلت أفعاله في هذا النص بشكل يختلف عن رؤيته العامة لكل ما حوله، إذ أنجز المتنبي فعل الرثاء والحزن للمرثية بأفعال جزئية كثيرة تمثلت بعملية حوارية تخاطبية مغلقة بينه وبين محبوبته المرثية، يقول:

لَكَ اللَّهُ مِنْ مَفْجُوعَةٍ بِحَبِيبِهَا قَتِيلَةٍ شَوْقٍ غَيْرِ مُلْحِقِهَا وَصَمَا
أَجْنُ إِلَى الْكَأْسِ الَّتِي شَرِبْتَ بِهَا وَأَهْوَى لِمُتَوَاهَا التُّرَابَ وَمَا ضَمَا
بَكَيْتُ عَلَيْهَا خَيْفَةً فِي حَيَاتِهَا وَذَاقَ كِلَانَا تَكْلَلَ صَاحِبِهَا قَدَمَا

...

أَتَاهَا كِتَابِي بَعْدَ يَأْسٍ وَتَرْحَةٍ فَمَاتَتْ سُرُورًا بِي فَمِتُ بِهَا غَمًا
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِي السُّرُورُ فَإِنِّي أَعِدُّ الَّذِي مَاتَتْ بِهِ بَعْدَهَا سَمًا
تَعْجَبُ مِنْ خَطِي وَلَفْظِي كَانَهَا تَرَى بِحُرُوفِ السَّطْرِ أَغْرِبَةً عَصَمَا
وَتَلْتُمُهُ حَتَّى أَصَارَ مِدَادُهُ مَحَاجِرَ عَيْنَيْهَا وَأَنْيَابَهَا سَحَمَا
رَقَا دَمْعُهَا الْجَارِي وَجَفَّتْ جُفُوهَا وَفَارَقَ حَيِّي قَلَمًا بَعْدَمَا أَدْمَى
وَلَمْ يُسْلِمَهَا إِلَّا الْمُنَايَا وَإِنَّمَا أَشَدُّ مِنَ السُّقْمِ الَّذِي أَذْهَبَ السُّقْمَا
طَلَبْتُ لَهَا حَظًّا فَفَاتَتْ وَقَاتَنِي وَقَدْ رَضِيتُ بِي لَوْرَضِيتُ بِهَا قِسَمَا
فَأَصْبَحْتُ أَسْتَسْقِي الْغَمَامَ لِقَابِهَا وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَسْقِي الْوَعَى وَالْقَنَا الصَّمَا
وَكُنْتُ قَبِيلَ الْمَوْتِ أَسْتَغْظِمُ النَّوَى فَقَدْ صَارَتْ الصُّغْرَى الَّتِي كَانَتْ الْعُظْمَى
هَبِيبِي أَخَذْتُ الثَّأْرَ فَبِكَ مِنَ الْعِدَى فَكَيْفَ بِأَخْذِ الثَّأْرِ فَبِكَ مِنَ الْحُمَى
وَمَا أُنْسِدَتْ الدُّنْيَا عَلَيَّ لِضَيْقِهَا وَلَكِنْ طَرْفًا لَا أَرَاكَ بِهَ أَغْمَى
فَوَا أَسَفًا أَنْ لَا أُكِبُّ مُقَبَّلًا لِرَأْسِكَ وَالصَّدْرِ اللَّذِي مَلِنَا حَزَمَا
وَأَنْ لَا أَلْقِي رُوحَكَ الطَّيِّبَ الَّذِي كَأَنَّ ذِكِّي الْمِسْكَ كَانَ لَهُ جِسَمَا

الفعل الرئيس هو رثاء جدته، وقد تضمن أفعالا جزئية متوالية قصد بها الحزن والألم والرفض، وفي الخلفية السياقية إنها توفت بعد أن أتاها منه مكتوب بأنه سيأتي لرؤيتها بعد طول غياب، وبسبب شدة فرحها بهذا الخبر لم تحتمل، ولأن مشاعره ثائرة، ورغبته جامحة للقاءها، ولن يتم هذا لاستحالته بسبب الموت، تجاوز البكاء ليحدثها حضورا وغيابا، فهي مخاطبته الأولى، ثم نفسه، ثم الآخرين، ليقصد تمثيل اللقاء الذي كان مرتقبا حضوره، ليسلي عن نفسه، ويتخلص من عذاب ضميره الذي جعله يبتعد عنها، وتمثلت قصوده التي

ترى في جدته الشخص النموذج في العالم حوله الذي كان يرى فيه النقص، بأفعال إخبارية تقريرية نحو (أتاها كتابي، تعجب من خطي، طلبت لها، هبيني، ...) وتعبيرية وصف بها شعوره وشعورها نحو: (أحن، أهوى، بكيت، ماتت سرورا، مت بها غما، رقا دمعها، فوأسفا ...)، ومتوالية الأفعال تنجز محاولة التنفيس عن النفس، والبوح بما يعتلج النفس من مشاعر الحزن والألم والضعف، ورفض تقبل البعد.

4.3. أفعال رؤية الموت والحياة

في مواقف الرثاء تتباين رؤية الشعراء حول ظاهرة الموت، وتستند تلك الرؤية إلى عوامل متعددة، منها منزلة المرنى، فضلا عن كفاءة الشاعر العلمية، وغيرها من العوامل التي يتم ترجمتها إلى أفعال تمثل رؤية خاصة بالمتكلم، أو رؤية جمعية يعيد صياغتها، وعند النظر في موضوع الرثاء بشكل عام يتضح أن الظاهرة حاضرة في الشعر العربي والغربي منذ بدايتهما، لكن تمثيل هذه الظاهرة، وتمثيل هذا المحتوى القضوي يختلف من شاعر إلى آخر، والغالب أن الناس عموما، والشعراء خصوصا يمرون بالمرتبة الأولى والثانية من مراتب الرثاء المذكورة سلفا، أما المرتبة الثالثة فلا يصلها إلا من له رؤية تمثله، وتمثل اعتقاداته وفلسفاته، وبها يتفاضل الشعراء، وتتمايز مكانتهم، ووجهات أنظارهم إلى الأشياء من حولهم، والمتنبى نظرتة إلى الموت نظرة تحد ولا مبالاة، إذ هو في طريقه إلى المجد والعلا يُدرك أن الموت يترص به، أما في سياق رثاء جدته فيتمثل فعل تجلي الرؤية والفلسفة المتعارف عليها عن الموت، فهو الحقيقة الأزلية التي لا يُنكرها أحد، ولكن تتباين الرؤى حولها، يمثل المتنبى هذه الرؤية بقوله:

أَلَا لَا أَرَى الْأَحْدَاثَ حَمْدًا وَلَا ذَمًّا فَمَا بَطَّشَهَا جَهْلًا وَلَا كَفَّهَا حِلْمًا
إِلَى مِثْلٍ مَا كَانَ الْفَقَى مَرْجِعُ الْفَقَى يَعُودُ كَمَا أُبْدِي وَيُكْرِي كَمَا أَرْمَى

القصد الظاهر أن المتنبى يُخبر عن حقيقة يعلمها كل الناس، وهي حقيقة الفناء والموت، والعودة إلى العدم، لكن الفضل يتضمن قصداً ثانياً هو مواساة النفس وتعزيتها ومحاولها تصبيرها على ما ألمّ بها من فاجعة، ويمثل قصوده بتجنب ألفاظ الموت المباشرة والتلميح لذلك بالتأشير الزماني (ما كان)، والتأشير المكاني (مرجع)، يفهمه المخاطب من الخلفية المعرفية المشتركة بينهما، ليقصد التخفيف من وطأة الحدث على نفسه. وفي تسلسل الحدث الكلامي الكلي كان هذا القول مقدمة وتمهيدا للعملية الحوارية التالية بينه وبين المرنى، وفي هذا السياق تضمنت الرؤية فعلا قصديا مضمرا هو الرضا لحدوثه، والجزع منه، وهو تمثيل لحالة المشاعر القصصية التي لم يستطع تجاهلها، وهو في سياقات رثائية أخرى يمثل فعل

الرؤية، لكنه سرعان ما يتجاوز فعل الضعف والألم، إلى الثورة عليهما ورفض الاستسلام، يقول في موضع آخر (البرقوقي، 2014، ص 163):

إذا استقبلت نفس الكريم مصابها بخبت ثنت فاستدبرته بطيب
وللواجد المكروب من زفراته سكون عزاء أوسكون لغوب

وفي سياق رثائي آخر تتجلى رؤيته وفلسفته للموت، بفعل قصدي مرفق، يقول (البرقوقي، 2014، ص 162):

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا وأعيا دواء الموت كل طبيب
سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تملك سالب وفارقها الماضي فراق سليب

تتمثل رؤية الموت بالأفعال الإخبارية، وهي رؤية كلاسيكية تطرق إليها من سبقه، يتمثل فيه قصد إثبات هذه الحقيقة التي لا يقتنع بها العقل عند حدوث المصيبة، والقصد تثبيت النفس بتذكيرها بأن هذا مصير من سبق، لكن هذه الرؤية تتغير عندما يتعلق الأمر بالأحبة، يقول في موضع آخر (البرقوقي، 2014، ص 730):

إني لأجبن من فراق أحبتي وتحس نفسي بالحمام فأشجعُ

ويقول أيضا:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سُبلا

تتغير رؤية المتنبي للموت بالقرب الوجداني لمن حوله، إذ يتمثل الفعل القصدي لمشاعر الحب والخوف من الموت على أقرب الناس إليه، في حين أن الرؤية تختلف إذا كان هذا الأمر لا يمسه، وتم تمثيل هذه القصود بالأفعال الإخبارية المؤكدة بأن واللام زيادة في الإثبات والتقرير، والثاني بالشرط.

4. أفعال رؤية العالم عند المعري

يتضمن النص الخطابي للمعري فعلا كلاميا مركبا وكليا هو الرثاء، وهو السياق المقامي الذي قيل لأجله النص، لكن الشاعر ضمن نصه أفعال كلام جزئية قام بتمثيلها عبر سلسلة من المراحل، مثلت حالاته القصصية (قصوده ومعتقداته ومشاعره ورغباته)، تمثلت رؤية المتكلم بأفعال جزئية تضمنت بنيات مباشرة وغير مباشرة، وهي كالآتي:

1.4. أفعال رؤية الذات

انبنت أفعال رؤية المعري لنفسه وتم تمثيلها بالأفعال اللغوية وإنجاز قصودها وفقا لخطوات تسلسلت لتمثيل قصود المتكلم، وتجسيد رؤاه، بدءاً بالخلفية المعرفية للعالم السابقة للقصصية التي تم

التعرج عليها، إذ هي تصور العالم، وهي تسمى شبكة القصور، وهي لا تنشئ الفعل، لكنها تسهم في التصور الذهني للحالات القصصية للمتكلم، والحالات القصصية لا تكون الفعل لكنها تمثله وتصوره، والفعل هو تمثيل لذلك التمثيل، ففي حالة المعري الخلفية المشتركة ترى أنه كان وحيدا، وكان يرى نفسه بنظرة دونية، وكان يتمنى أنه لم ير هذه الحياة، كان يعتقد بعدم أهمية حياته، وبأنه لا شيء، ويشعر باليأس والرفض للحياة، ويرغب في ترك الدنيا، والخلاص منها، وتمثيل حالاته تلك كانت بأفعال كثيرة، ومن العوامل التي أسهمت في التأثير في شخصية المعري البيئة والعصر الذي عرف بالاضطراب، وتسلب المحتلين، وتفرق دول المسلمين، ومنها إصابته بالعمى، وفقد والديه. فتكونت لديه سمات خاصة منها: التواضع، والشك في كل الناس؛ لأنه كان يرى أن النفس شريرة بطبعها وأصلها خبيث، والتشاؤم، والإعراض عن الزواج والتناسل، وكان زاهدا في الدنيا غير مبال بملذاتها (السلفي، 2021، ص 35-36). وفي ذلك يقول:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبئ
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث

إن السياق المقامي يفيد أن المتكلم لا يقصد المعنى المباشر للسجون المتعارف عليها، بل يقصد إخبار المخاطب عن سبب معاناته، ورؤيته التشاؤمية، واعتقاداته لكل ما حوله ويستعمل ملفوظ الرؤية البصرية التي حُرِمَ منها (أراني)، وتمثيل ذاته بالفاعل والمفعول به ليقصد الحصار الذي هو فيه دون غيره، بالأشياء التي حجبت عن ذاته وعن العالم، لكن الفعل الإخباري هنا يقصد به تجاوز القصد المباشر للرؤية إلى شعوره بالعجز، وزهده فيما حوله، ومن أفعال رؤيته لذاته:

دُعِيتُ أبا العلا وذاك مَيِّنٌ ولكنَّ الصحيحَ أبو الزول

تكشف الفعل عن قصد التقليل من قيمة الذات، وهو كان قليل الاعتداد بنفسه، وكثير الازدراء لها (حسين، د.ت)، وتؤكد هذا القصد بملفوظات تسهم في إقناع المخاطب بهذه الرؤية، لاسيما حرف الاستدراك (لكن) الذي يفيد نقض ما سبق، فضلا عن النفي بالتأشير الذي يعود على ذاته (وذاك مِين)، وهو يقصد التواضع، وفي القصيدة يشير إلى فعل رؤيته للكائن البشري، واعتقاده عنه، ورغبته في أن يصل هذا القصد إلى مخاطبه، يقول:

وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحَدَّثٌ مِنْ جَمَادٍ
وَاللَّبِيبُ اللَّيْبُ مَنْ لَيْسَ يَغْدُ رَبِّكَوْنٍ مَصِيرُهُ لِلْفَسَادِ

يوظف المعري لتمثيل قصده بالفعل الكلامي الإخباري التقريري الذي يتسم بالوصفية وترك الاسمية لينجز قصد الإمعان في التحقير والخط من قدر الجنس البشري بما فهم نفسه وذاته، فضلاً عن التأكيد على رفض أفعال الإنسان المشار إليها بلفظة "الفساد" الذي يتأتى من هذا الكائن، ويتأكد إنجاز هذا القصد بوصفه بما دونه في الوجود (حيوان، جماد)، وثمة قصد مضمحل يتضمنه الفعل اللغوي هو أنه توصل إلى حقيقة الإنسان بعد أن عجز غيره ذلك، وهذه الرؤية هي من اعتقاداته التي انفرد بها، التي يريد أن يقتنع بها مخاطبه، وهذا الحالات القصصية والاعتقادات الخاصة هي من بنات أفكاره، وهو ما ابتدأه في مطلع القصيدة بقوله: (غير مجد في ملتي واعتقادي...)، وثمة نص مصاحب في موضع آخر يؤكد هذا القصد وتلك الرؤية، وذلك في قوله (المعري، 1957، ص 25):

لَوْ عَرَفَ الْإِنْسَانُ مِقْدَارَهُ لَمْ يَفْخَرْ الْمَوْلَى عَلَى عَبْدِهِ

يعبر هذا الفعل الكلامي المتمثل ببنية الشرط التي تؤكد نفي الشرط وبالتالي انعدام النتيجة، عن رؤية المعري لذاته، وللذات الإنسانية ككل، هو يخاطب الإنسان بعموم اللفظ، ويكشف عن قصده الذي فيه أن قدر الإنسان ضئيل، وينجز فعل الاحتقار والانتقاص، وفيه افتراض مسبق هو تطاول الموالي على العبيد، والفخر بالنفس في ظل تفاوت الطبقات المجتمعية آنذاك.

2.4. أفعال رؤية المجتمع

يفترض السياق الاجتماعي أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، لا ينفك عن هذا، ولا يستطيع العيش في عزله عن الآخرين، وهذه معرفة مشتركة بين أقطاب التخاطب في كل مكان وزمان، ومن ثم يحدث التأثير والتأثر بكل مكونات المجتمع وعاداته وتقاليده، وفي مجتمع المتكلم/المعري الذي يقوم بتمثيل مجتمعه الخاص وفقاً لقصديته ورؤيته واعتقاداته التي يؤمن بها، فهو يخالف المتعارف عليه في مجتمعه من قوانين الرثاء والعزاء، يمثل المعري قصوده، ويبني رؤيته للمجتمع حوله باستعمال البنية المباشرة (الخبرية، التقريرية)، التي يفتتح بها قصيدته، يقول:

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي نَوْحُ بَالِكٍ أَوْ تَرْتُمُ شَادٍ
وَشَبِيهٌ صَوْتُ النَّعْيِ إِذَا قُبِ سَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادٍ

يفتح المعري القصيدة بافتراض مسبق مفاده أن لديه ملة وعقيدة تختلف عن الذي يعتقده الآخرون، ويمثل هذا المعتقد بالفعل المباشر، ويقصد أن يفهم المخاطب هذا القصد دون أي مواربة؛ لأنه يرى أن هذا هو المعتقد الحق، فالفعل الإخباري والتقرير المتضمن المقابلات والمتناقضات (نَوْحُ بَالِكٍ، أَوْ تَرْتُمُ شَادٍ)، (صَوْتُ النَّعْيِ، صَوْتُ الْبَشِيرِ) يؤكد قصده في ثبات الموقف، وتقرير الرؤية القائمة في كل

الأحوال التي جمعها في مقابلاته المذكورة، التي هي كل الحياة، إذ فيها إشارة إلى الثنائي العام (الموت والحياة)، وتقديمه لمتلازمات الموت تؤكد قصد الفعل بالرؤية التشاؤمية التي تتجسد في معظم الأفعال المذكورة كما سيأتي ذكرها. وللقصد نفسه يستعمل بنية غير مباشرة في البيت التالي، يقول:

أَبْكْتَ تَلُكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَا نَتَّ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا الْمَيَّادِ؟

ينجز هذا الفعل غير المباشر قوة تتكون من أكثر من قصد، إذ إن القصد الحرفي المباشر هو سؤال المخاطب عن أمر يجهله المتكلم، فقد استعمل بنية الاستفهام، لكن هذا الفعل له قوة إنجازية مستلزمة هي التي قصدها المتكلم من الفعل وهي تقرير الرؤية القاتمة التشاؤمية للعالم وإثباتها، التي ترى واحديه الرؤية إلى المظاهر في الطبيعة والحياة، وثمة قصد ثالث وهو إقناع المخاطب بتلك الرؤية عن طريق الاستدلال بالمثل المذكور وهو صوت الحمامة، إذ هي في كل حالاتها ستقوم بالصوت نفسه، وفيه فعل مضمّر هو عدم الاغترار بالأشياء الظاهرة فهي تُخفي ما لا نراه. ويتجلى أثر عاهة العى على أفعاله في التمثيل بالمفوضات التي تتعلق بحاسة السمع (نوح، ترنم، صوت النعي، صوت البشير، بكت، غنت) في استدلالاته على عدم الرضى بما هو فيه، وعدم المبالاة بالحزن أو الفرح، ثم تفضيل الموت على الحياة، وفي هذا يقول:

ضَجَعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الْ جِسْمُ فِيهَا، وَالْعَيْشُ مِثْلُ السُّهَادِ

وثمة نص مصاحب يربط فيه بين الموت والنوم، إذ يرى أن الموت هو الراحة، كما يرتاح في النوم،

وفي ذلك يقول (المعري، 1957، ص 46):

وبين الموت والنوم قُربى ونسبةً وشتان براء للنفوس وإعلال

إذا نمت لاقيت الأحبة بعدما طوتهم شهور في التراب وأحوال

تتسلسل الأفعال الجزئية التي تمثل رؤية المعري التشاؤمية للعالم حوله، في هيئة بنيات لغوية مباشرة وغير مباشرة، تتراتب فيها القصود، وهذه الأفعال فيها أكثر من قوة منجزة، إذ تتشكل بهيئة عملية حوارية تتم بين المتكلم ومخاطب حقيقي أو مفترض، يوجه فيها المتكلم خطابه بأفعال ذات طابع توجيهي مباشر، لكنها تتضمن قصودا غير مباشرة، يقول:

أَبْنَاتِ الْهَدِيلِ أَسْعِدْنَ أَوْعِدْ نَ قَلِيلَ الْعَزَاءِ بِالْإِسْعَادِ

إِيْهِ! لِلّٰهِ دَرْكُنَّ فَأَنْتُنَّ الْ لَمَوَاتِي تُحَسِّنَنَّ جِفْظَ الْوَدَادِ

مَا نَسْنَنَّ هَالِكَا فِي الْأَوَانِ الْ خَالٍ، أَوْدَى مِنْ قَبْلِ هُلْكَ إِيَادِ

بَيْدَ أَنِّي لَا أَرْتَضِي مَا فَعَلْتُ نَ وَأَطَوُ أَفْكُنَّ فِي الْأَجْيَادِ

فَتَسْلُبَنَّ وَاسْتِعِرْنَ جَمِيعَا مِنْ قَمِيصِ الدُّحَى، ثِيَابَ جِدَادِ

ثُمَّ غَرِدْنَ فِي الْمَاتِمِ وَأَنْدُبُ نَ بِشَجْوَمَعَ الْغَوَانِي الْجَرَادِ

يتمثل المحتوى القضوي لخطاب المتنبي في ظاهرة اجتماعية تحدث في سياقات الرثاء، وهي النواح والبكاء والحداد على الميت لاسيما من قبل النساء اللاتي يُظهرن هذا الفعل بحكم عاطفتين وضعفهن، لكن المعري يمثل هذا الفعل بإسقاطه على بنات الهديل (الحمام) في عملية حوارية تخاطبية بينه وبينهن، لينجز فعل الحزن والتألم والفقد، باستعمال الأفعال التوجيهية الأمرية (أسعدن، عدن، تسلين، استعرن، غردن، اندبن) التي تجاوزت قوتها الإنجازية المباشرة إلى قوة مستلزمة؛ لأن المتكلم لا يملك التوجيه للمخاطب، وليس له قدرة على التأثير فيه، فهي حوارية من طرف المتكلم، وفيه قول مضمر يتمثل في أن كل ما في الطبيعة يعيش الحزن ويفضل الموت، ولا يغرد للحياة، وتتضح رؤيته التشاؤمية في استحضار الأسطورة التي تقول إن الحمام لا يزلن يبكين الهديل، وهو فرخ كان على أيام نوح فصاده أحد جوارح الطير (المعري، 1957، ص 8)، وذلك في قوله:

مَا نَسْنُ هَالِكًا فِي الْأَوَانِ خَالٍ، أَوْدَى مِنْ قَبْلِ هُلْكَ إِيَادِ

ويتمثل فعل رؤيته لمظاهر تجهيز الميت بحسب العُرف الاجتماعي والديني، لكنه يتجاوز ذلك برؤية مختلفة، يقول:

وَدَعَا أَهْمَهَا الْحَفِيَّانِ ذَاكَ الـ	شَخْصَ إِنَّ الْوَدَاعَ أَيْسَرُ زَادِ
وَاعْسَلَاهُ بِالْدَمْعِ إِنْ كَانَ طَهْرًا	وَادْفِنَاهُ بَيْنَ الْحَشَى وَالْفُؤَادِ
وَاحْبُوهَا الْأَكْفَانَ مِنْ وَرَقِ الْمُصَدِّ	حَفِّ كِبْرًا عَنْ أَنْفُسِ الْأَبْرَادِ
وَاطْلُوهُ النَّعْشَ بِالْقِرَاءَةِ وَالنَّسْ	بِيحٍ لَا بِالنَّحِيبِ وَالتَّغْدَادِ

يتمثل الفعل القصدي الكلي في شدة الحزن والأسى، ويتمثل هذا بمتواليات الأفعال الجزئية التي تنوعت بين التوجيهية الأمرية (ودعا، واعسلاه، وادفناه، واحبوا، واطلوه)، والنداء (أهها)، والقصد تقرير الحزن وتبريره، وقد احتوت الأفعال الإجراءات العملية التي يقوم بها المجتمع للميت، لكن المعري يتجاوز الحسيات إلى المعنويات، وينجز ذلك بالإسنادات غير المألوفة للمخاطب، فالغسل بالدمع لا بالماء، والدفن بين الحشى والفؤاد لا في الثرى، والأكفان من ورق المصحف لا القماش، والاتباع بالدعاء لا بالبكاء. ومن ثم فهو يشارك في الحزن، ويوجه إلى ما يفيد المرثي وينفعه بعد موته، وتمثل هذا بقوله (لا بالنحيب والتعداد) وقد ورد في السنة أن الميت يُعذب بهذا إذا قام به أهل.

3.4. أفعال رؤيته للمرثي

تداولية أفعال الكلام تنظر إلى الكلام بوصفه فعلا لغويا، يدل عليه قصد المتكلم، والرثاء في النص هو الفعل الكلامي الكلي، إذ المقام الخارجي يدل أن المعري قال القصيدة في رثاء رجل حنفي، لكن القصيدة

تضمنت متواليات من الأحداث الكلامية أفضت إلى رؤية الشاعر لكل ما حوله، التي تجسدت بفعل تمثالاته الذهنية وحالات القصيدة، وقد تشكل متواليات الأفعال الكلامية كالآتي: البيت الأول مثل الفعل التمهيدي والتأطير العام لكل اعتقاداته، ثم تتالت الأفعال الجزئية لتفصيل كل رؤية على حده، وفي تلك المتتاليات تجلت رؤية المعري حول المرثي، وكيف يتصور ذلك في ذهنه وعقله، ووظف لذلك بنيات لغوية أنجز بها أفعالا كلامية مثلت حالاته القصيدة، يقول في ذلك:

قَصَدَ الدَّهْرُ، مِنْ أَبِي حَمْرَةَ الْأَوْ	أَبِ مَوْلى حَجَى وَخَدَنَ اقْتِصَادِ
وَفَقِيحاً أَفْكَارُهُ شَدَنَ لِلنُّعْدِ	مَانِ مَا لَمْ يَشِدْهُ شَعْرُ زِيَادِ
فَالْعِرَاقِي بَعْدَهُ لِلحَجَّازِ	يِّ قَلِيلِ الْخِلَافِ سَهْلُ الْقِيَادِ
وَحَظِيْباً لَوْ قَامَ بَيْنَ وَخُوشِ	عَلَّمَ الضَّارِيَاتِ بَرَّ النَّقَادِ
رَاوِيّاً لِلْحَدِيثِ لَمْ يُخَوِّجِ الْمَعْدِ	رُوفَ مَنْ صَدَّقَهُ إِلَى الْأُسْنَادِ
أَنْفَقَ الْعُمْرَ نَاسِكاً يَطْلُبُ الْعِلْدِ	مَ بِكَشْفٍ عَن أَصْلِهِ وَانْتِقَادِ
مُسْتَقِي الْكَفِّ مِنْ قَلِيْبِ زُجَاجِ	بِغُرُوبِ الْيَرَّاعِ مَاءِ مِدَادِ
ذَا بَنَانٍ لَا تَلْمُسُ الدَّهْبُ الْأَحْدِ	مَرْزُوقاً فِي الْعُسْجَدِ الْمُسْتَفَادِ
وَدَعَا أَيْهَا الْحَفِيَّانِ ذَلِكَ الـ	شَخْصَ إِنَّ الْوَدَاعَ أَيْسَرُ زَادِ

يجاري المعري سنن من سبقه في تعزية المرثي وفقاً للمعرفة المشتركة بينه وبين المخاطب التي تقتضي ذكر مآثر المرثي، وتمثل هذا المحتوى القضوي بالأفعال الإخبارية التقريرية المباشرة التي تنجز القصد المباشر، وهو الإشادة بما قدم في حياته من صفات نبيلة وسامية، وهي التي كان يفخر بها الناس في ذلك العصر، والمملفوظات التي أنجز بها أفعاله هي ما كان يعتقد بأهميتها، وهي (فقيها، خطيباً، راوياً للحديث، ناسكاً)، كان القصد من استعمالها الدعوة إليها والحث عليها، وترك ما دون ذلك، إذ هو كان رافضاً للتوسع على النفس في الحياة، زاهداً في كل ملذاتها، وكان قصده الرئيس تعزية المرثي، وإلا فإن اعتقاده أن الموت نجاة من تعب الحياة، وقد تمثل هذا القصد بنصوص مصاحبة تؤكد، يقول:

تَعَبَ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَعْدَ جَبُّ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي اِزْدِيَادِ

يتجلى فيه التشاؤم من الحياة، ورفضها، وعدم الرضى بما فيها، وتفضيل الموت بقوله:

ضَجَعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الـ جِسْمُ فِيهَا، وَالْعَيْشُ مِثْلُ السُّهَادِ

غير أن هذا القصد لا يعتقده المخاطب، والمتكلم يدرك ذلك من خلال الخلفية المشتركة بينهما، التي تقتضي حرص الإنسان على الحياة، وهروبه من الموت بكل الوسائل، ففي الملة والدين المشتركين بينهما تتجلى هذه

الرؤية، يقول تعالى في كتابه العزيز: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} الجمعة: 8، والمتكلم يدرك ذلك ويؤكد بالنص المرافق في قوله (المعري، 1957، ص 15):

وخوف الردى أوى إلى الكهف أهله وكلف نوحاً وابنه عمل السفن
وما استعذبت به روح موسى وأدم وقد وعدا، من بعده، جنتي عدن
فالمتكلم يدرك أن هذا الفعل التأثيري سيكون ضعيفا على المخاطب، ولذلك لجأ إلى الاستدلال بالطبيعة حوله ليقنعه، لكنه يدرك بُعد التأثير حتى على نفسه، لأنها الطبيعة البشرية التي يحتقرها.

4.4. أفعال رؤية الموت والحياة

الموت هو المحتوى القضوي الرئيس الذي يقابل الحياة، والرثاء نتيجة لهذا الحدث، وأفعال هذه الرؤية تمثلت وفقا لتسلسل مخطط من المتكلم، إذ يبدأ بالسياق قبل القصدي الذي تم ذكره سابقا، من أن المعري مرّ بتجربة خاصة، هي فقد عينيه وهو في الرابعة من عمره، الذي أعوزه إلى الحاجة الدائمة إلى غيره، مما أورثه اعتقادا بالفرض لواقعه، وشعوره بالظلم والنقص، ورغبته في إنهاء هذه المعاناة، إلى تمثيل ذلك بأفعال لغوية أنجزت أفعالا كلامية ذات قوات متفاوتة من القوة والضعف، والمباشرة وغير المباشرة، وكان فيها فعل قصد كلي يتمثل في رؤية الجانب المظلم السوداوي التشاؤمي، الذي يدعو إلى تفضيل الموت، والزهد في الحياة وملذاتها؛ لأنها مليئة بالمتاعب والمهالك. ومن أفعاله الكلامية التي لا ترى إلا الموت، قوله:

صَاحِ! هَذِي قُبُورُنَا تَمَلُّ الرُّحُ بَ قَائِنَ الْقُبُورِ مِنْ عَهْدِ عَادٍ؟

الفعل التوجيهي (صاح) المتمثل في النداء بالنكرة غير المقصودة المحذوف منه الأداة، الذي يتضمن حذف الحياة من الجميع، ويقصد به التحذير، فضلا عن التأشير بالقريب (هذي) ليقصد قرب الموت، فضلا عن إرادته، وإضافة الضمير الجمعي (نا)، للتعميم، لكن المعري ينحرف بالمعادل الطبيعي للمكان إلى معادل يخالف الوضع والعالم في ثقافته المعروفة، لينجز قوة مستلزمة وفعل متضمن هو الرؤية التشاؤمية للحياة، والتحذير من الشرور التي تمتلئ بها، وإلى هذا القصد وتأكيده جاء استعمال الفعل التوجيهي الاستفهامي (قَائِنَ الْقُبُورِ مِنْ عَهْدِ عَادٍ؟)، متوالية الأفعال الجزئية المذكورة تضمنت فعلا كليا هو حتمية الموت والزهد عن الحياة. ومن ثم يوجه المخاطب إلى التعامل مع الحياة برؤيته تلك، يقول:

صَاحِ! هَذِي قُبُورُنَا تَمَلُّ الرُّحُ حَقَفِ الوَطْءِ! مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الـ
بَ قَائِنَ الْقُبُورِ مِنْ عَهْدِ عَادٍ؟ أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ
دُ، هَوَانُ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ وَقَبِيحُ بَنَاءِ، وَإِنْ قَدُمَ الْعَهْدُ

سِرُّ، إِنَّ اسْتَطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُؤِيداً
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً
وَدَفِينِ عَلَى بَقَايَا دَفِينِ
فَاسْأَلِ الْفَرْقَدَيْنِ عَمَّنْ أَحْسَا
كَمْ أَقَامَا عَلَى زَوَالِ نَهَارٍ
وَأَنَارَا مُدْلَجٍ فِي سَوَادٍ
لَا اخْتِيالاً عَلَى رَفَاتِ الْعِبَادِ
ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاخُمِ الْأَضْدَادِ
فِي طَوِيلِ الْأَزْمَانِ وَالْآبَادِ
مِنْ قَبِيلٍ، وَأَنَسَا مِنْ بِلَادٍ
وَأَنَارَا مُدْلَجٍ فِي سَوَادٍ

تتمثل أفعال رؤية المعري بسلسلة من بنيات لغوية تتمثل بعملية حوارية تخاطبية بين المعري ومخاطبه الحقيقي أو المفترض لينجز سلسلة من الأفعال الجزئية التي تفضي إلى فعل قصد كلي هو العظة والعبرة والالتفات إلى تهاة الحياة واحتقارها، وتنوعت الأفعال بين التوجيهية والإخبارية وغيرها، وأنجزت قوى مباشرة وغير مباشرة، وتشكلت متوالية الأفعال الكلامية كالآتي: الأفعال التوجيهية (صاح، أين القبور؟، خفف الوطاء، سر، فاسأل)، التي تجاوزت البنية المباشرة إلى قصد غير مباشر هو حقارة الحياة وسوادها، والتحذير منها، ومن الأفعال الإخبارية التقريرية (رب لحد قد صار...، ودفين على بقايا...، كم أقاما على...)، ليقصد إثبات اعتقاده في لفت الناس إلى الجانب الحقيقي للحياة وتقديره، ويقصد إقناعه بهذا بواسطة الالتفات إلى ما يجري حوله، أي بالنظر والتأمل ليحدث الأثر في مخاطبه. ثم يصرح له بقصده بعد أن جعله يستدل بالمعطيات الحسية من حوله بقوله:

تَعَبَ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَعْبَى
جَبُّ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي أَرْذِيَادٍ

هو يرى أن الحياة توالي ولادة وموت، وأنها الطريق المؤدي إلى الموت، ويرى أنها علة الشقاء وسر الهلاك ولذلك على الناس أن يرفضوها، وكان يستخف بها ويفضل الموت عليها (زعيميان، 2003، ص 206-207)، يقول:

مَوْتُ يَسِيرُ مَعَهُ رَحْمَةً
وَقَدْ بَلَوْنَا الْعَيْشَ أَطْوَارَهُ
خَيْرٌ مِنَ الْيَسْرِ وَطُولِ الْبَقَاءِ
فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ غَيْرَ الشَّقَاءِ

يقيم موازنة ومفاضلة بين الموت والحياة وكعاداته يقدم الموت ويفضله، ويستعمل التركيب الاسمي بالفعل التقريري ليثبت ويؤكد عدم الرضى بالحياة، لعدم وجود الراحة فيها، والهروب إلى الموت الذي سيجد فيه الراحة، وتؤكد هذا بقوله في موضع آخر:

ضَجَعَةُ الْمَوْتِ رَفْدَةٌ يَسْتَرِيحُ إِلَيْهَا
جِسْمٌ فِيهَا، وَالْعَيْشُ مِثْلُ السَّهَادِ

5. بين المتنبي والمعري

عند النظر إلى القصيدتين المختارتين، يلاحظ ملامح رؤية كلا الشاعرين، وأفعالهما حول كل منهما، فحين يبتدئ المتنبي قصيدته بالعزاء والفلسفة التي ترى أن الحياة لا تمنح الإنسان ما يريد، فعل يتضح فيه الانهزام الكامل، وعدم المبالاة بمجريات الأحداث، ويتمثل الفعل الكلي بمحاولة تثبيت النفس، وتصويرها، وتتمثل هذه الرؤية بالإشارة إلى ذاته المتكلمة، المسبوقة بأداة التحضيض التي تحث على ذلك، يقول المتنبي في مطلع القصيدة:

أَلَا لَا أَرَى الْأَحْدَاثَ حَمْدًا وَلَا ذَمًّا فَمَا بَطَّشُهَا جَهْلًا وَلَا كَفَّهَا حِلْمًا
إِلَى مِثْلِ مَا كَانَ الْفَتَى مَرْجِعَ الْفَتَى يَعُودُ كَمَا أُبْدَى وَيُكْرِي كَمَا أَرْمَى

يشير إلى فعل الرؤية العقلية الفلسفية بالفعل (أرى) المسبوق بالنفي، ليقصد أن هذه قناعته، وهذا اعتقاده، الذي تأتي من خلال الحدث الفاجع الذي أصابه، وهو موت جدته، وكأنه يمهد لنفسه، ويعزها ليمنحها الصبر والتجلد؛ لأن الموقف كان أصعب من أن يتحملة، وقد كانت أفعاله قبل هذا حول نفسه ورؤية كل شيء دونه، وقوته واعتداده بها، فكان الموقف أكبر من توقعه، ولذلك اختلف مطلع القصيدة، وتغير الفعل، واتضحت الرؤية التشاؤمية، وفعل الاستسلام والحزن، إذ استوى عنده الحلو والمر، وقصدية الاعتقاد في رؤية المتنبي وقتية، لأنها فقط نتيجة لحدث موت جدته، ولذلك الرؤية للحدث، ولذلك لم يتجاوز هذا الاعتقاد والرؤية البيتين، في حين يأتي المعري بفعل كلي يمثل فعل القصيدة (الاعتقاد) والرؤية بشكل أشمل، ورؤية ثابتة، لا تتعلق بحدث، هي في ذهنيته السابقة للفعل، يقول في مطلع قصيدته التي يرثي بها رجلا حنيفيا:

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي نَوْحُ بَاكِ أَوْ تَرْتَمُ شَادٍ
وَشَبِيهَ صَوْتِ النَّعْيِ إِذَا قِيءَ مَنْ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادٍ

ينجز المعري فعلا كلياً هو الرثاء، لكنه تضمن فعلا قصدياً أعمق، هو رويته الفلسفية للموت، إذ تتجلى هذه الروية في خلفيته الذهنية، واعتقاده، قبل إنجازه الفعل، فقلوه: (في ملتي واعتقادي)، فيها فعل قصدي يتمثل في أن رويته ثابتة لا تغيير فيها، كما أن استعمال الملل والاعتقادات وإضافتها بضمير التكلم تؤكد هذا القصد، إذ إنها مقدسة عند الناس، وهذه الفلسفة تتضح بنظرة أكثر تشاؤمية في حالة المعري، على الرغم من أنه يرثي شخصا ليس قريبا من قلبه كما في حالة المتنبي، إذ يستعرض هذه النظرة بشكل واسع ومطول في قصيدته قبل أن يتحول إلى ذكر المرثي.

المتنبي يرثي أقرب الناس إلى قلبه، وهي جدته، التي كانت تقريبا كل أهله، وأكثر إنسان عزيز عليه، وعلى الرغم من ذلك تتمثل فلسفته في بيتين من مطلع القصيدة ثم يتحول إلى ذكر فقيدته، في حين أن المعري يسرد

تفاصيل رؤيته وبيئتها في عشرين بيتا تقريبا قبل الحديث عن المرثي، ليقصد نقل تصوره وفلسفته السوداوية إلى الآخرين، وربما يعود ذلك إلى الخلفية السابقة لكليهما، إذ إن المتنبي منذ صغره يشعر بأنه مختلف عن غيره، وأنه متفوق عليهم، وكان يجهر بذلك، وكان لديه تطلعات كبيرة، ونظرة بعيدة للحصول على أعلى المراتب، في حين أن خلفية المعري تختلف تماما، إذ إن إصابته بعاهة العى وهو صغير أضفت له شعورا سلبيا، جعلته يشعر بالنقمة على الحياة، ويمثلها برؤيته التشاؤمية السوداوية، ربما رأى أنها غير عادلة فيما أصابه، وهذه الرؤية عند المتنبي، لكنه يرى أنها لم تمنحه ما يستحق، فهو فوق الآخرين وأفضل منهم، وهم يأخذون ما لا يستحقون. الخلفية الذاتية والاجتماعية في نفس كل منهما، ولكل رؤيته واعتقاده.

المتنبي يمثل رؤيته للعالم من خلال الموقف الذي مر به وهو موت جدته، ولذلك كان مقتضبا، في حين أن المعري يمثل فلسفة تغلغت في نفسه، وتشربها في مجريات حياته الطويلة، ولذلك أشار إلى نفسه بالضمير المتصل (ملتي/اعتقادي)، وكأنها ملة جديدة طرحها للعالم، واعتقاد ينبغي أن يتبع. الاعتقاد والفلسفة أنه لا فرق بين الحياة والموت، لا فرق بين الفرح والحزن، لا فرق بين الغناء والبكاء، كلاهما سيان، وتمثل هذه الرؤية في قوله:

وَشَبِيهَ صَوْتِ النَّعْيِ إِذَا قِيَدُ سَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادٍ
أَبَكْتُ تِلْكَمُ الْحَمَامَةَ أَمْ غَدَ نَتَّ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا الْمَيَادِ؟

وفي رؤية المتنبي يتمثل فعل الرضى، والتبصر بالحياة، وعدم الاستغراب من الأحداث، وفي ذلك يقول:

عَرَفْتُ اللَّيَالِي قَبْلَ مَا صَنَعْتُ بِهَا فَلَمَّا دَهْتَنِي لَمْ تَرُدَّنِي بِهَا عِلْمًا
مَنَافِعُهَا مَا ضَرَفِي نَفْعَ غَيْرِهَا تَغْدِي وَتَرَوِي أَنْ تَجُوعَ وَأَنْ تَظْلَمَ

يتمثل إنجاز الفعل التعبيري بالإخبار عن رؤيته للعالم وخبرته بها، وأن هذا هو المتوقع منها، لكن المعرفة تختلف عن حدوث الفعل، فقوله (دهتني)، تشير على قوة وقع الحدث على قلبه، ويتأكد هذا القصد بالتضاد في قوله (منافعها ما ضر)، فحتى النفع منها يضر، فكيف بالبقية التي لا تنفع، فضلا عن المقابلة في قوله: (تَغْدِي وَتَرَوِي أَنْ تَجُوعَ وَأَنْ تَظْلَمَ)، وتتجلى هنا نظرتة الفوقية لذاته، وأنه أعرف من أن تعلمه الدنيا وأحداثها (لَمْ تَرُدَّنِي بِهَا عِلْمًا).

كان للمتنبي رؤية ثابتة لمعظم الأشياء من حوله، ومنها اعتداده بنفسه، وبشجاعة ممدوحيه، وغيرها، ولكن في حدث وفاة جدته، يحدث أن تتغير نظرة المتنبي في لمحة وتنتأرجح نفسه لتعود إلى نظرتة السابقة، يقول:

وَكُنْتُ قُبَيْلَ الْمَوْتِ أَسْتَغْظِمُ النَّوَى فَقَدْ صَارَتِ الصُّغْرَى الَّتِي كَانَتْ الْعُظَى

المتنبي ينجز فعل الفخر والاعتداد بنفسه، ويظهر تأثيراً يرى العالم كله في نفسه، هو ونفسه العالم كله، يتمثل هذا بالتواصل الخطابي في الدائرة المغلقة التي يمثلها هو ونفسه في عملية تحاورية مشتملة على ضمائر الكلام والخطاب والغياب، يقول:

تَغَرَّبَ لَا مُسْتَغْظَمًا غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَا سَالِكًا إِلَّا فَوَادَ عَجَاجَةٍ يَقُولُونَ لِي: مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ؟ كَأَنَّ بَيْنَهُمْ عَالُمُونَ بِأَنْتَنِي وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدَي وَلَكِنَّنِي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ وَجَاعِلُهُ يَوْمَ اللَّقَاءِ تَحِيَّتِي إِذَا فَلَّ عَزْمِي عَنْ مَدَى خَوْفٍ بُعْدِهِ وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَنَا كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا إِذَا شُبَّتِ فَأَذْهَبِي فَلَا عَبْرَتَ بِي سَاعَةٍ لَا تُعْزِنِي وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا وَلَا وَاجِدًا إِلَّا لِمُكْرَمَةِ طَعْمَا وَمَا تَبْتَغِي؟ مَا أَتَّبِعِي جَلَّ أَنْ يُسَمَى جُلُوبُ إِيَّاهُمْ مِنْ مَعَادِنِهِ الْيَتَمَا بِأَصْعَبِ مَنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجِدَّ وَالْقَهْمَا وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْعُشْمَا وَالْأَفْلَسْتُ السَّيِّدَ الْبَطْلَ الْقَرَمَا فَأَبْعُدُ شَيْءٍ مُمَكِّنٌ لَمْ يَجِدْ عَزْمَا يَهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعُظْمَا وَيَا نَفْسُ زِيْدِي فِي كِرَامِهَا قُدْمَا وَلَا صَحْبَتِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلْمَا

يبحث المتنبي نفسه ويحضرها على تجاوز الحدث والعودة إلى ما كانت عليها، وعلى رؤيته الثابتة التي تتمثل في السير والإقدام للوصول إلى المكانة المستحقة. في حين نجد المعري لا يرى ما يحدث في الدنيا يستحق الالتفات، المعري ينظر إلى العالم نظرة دونية، يتمثل فعله بالتحذير من الدنيا، يقول:

أَبَكْتُ تِلْكَمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَا صَاحٍ! هَذِي قُبُورُنَا تَمَلُّ الرُّخَا خَفَفِ الْوُطْءُ! مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الدَّ وَقَبِيحُ بَنَّا، وَإِنْ قَدِمَ الْعَهْدُ سِرٌّ، إِنْ اسْتَطَعْتُ فِي الْهَوَاءِ رُؤِيداً رَبِّ لَخَدِّ قَدْ صَارَ لَخْدًا مَرَاراً وَدَفِينِ عَلَى بَقَايَا دَفِينِ فَاسْأَلِ الْفَرَقْدَيْنِ عَمَّنْ أَحْسَا كَمْ أَقَامَا عَلَى زَوَالِ مَهَارِ نَتَّ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا الْمَيَادِ بَ فَإِنَّ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ دُ، هَوَانُ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ لَا اخْتِيَالاً عَلَى رَفَاتِ الْعِبَادِ صَاحِكٍ مِنْ تَرَاحُمِ الْأَضْدَادِ فِي طَوِيلِ الْأَرْمَانِ وَالْأَبَادِ مِنْ قَبِيلٍ، وَأَنَسَا مِنْ بِلَادِ وَأَنَارَا مُدْلَجٍ فِي سَوَادِ

ينجز المعري أفعاله التي تتمثل في التحذير من الحياة، وأنها كلها تعب، ولا تستحق العناء ولا قيمة للفرح فيها، وتتمثل هذه الأفعال بالأفعال التوجيهية اللافتة للنظر، (أبكت، صاح، أين القبور، خفف

الوطاء، سر، فاسأل)، المعري يحذر غيره، يوجه الآخرين، ليشعروا بما يشعر به من قبح الحياة. ويصرح بهذا في قوله:

تَعَبُ كُلُّهَا الْحَيَاةَ فَمَا أَعُ
إِنَّ حُزْنَاً فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا
جَبُّ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي أَزْدِيَادِ
فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ
أُمَّةٌ يَحْسُبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
لِ إِلَى دَارِ شَقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ
جِسْمُ فِيهَا، وَالْعَيْشُ مِثْلُ السُّهَادِ
ضَجْعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الـ

تتجلى رؤية المعري للعالم حوله من خلال اعتقاده سوداوية الحياة، ورغبته في اعتزالها، وعدم الاستزادة منها، ويتمثل هذا القصد بالأفعال الإخبارية التي تتكاثر بالمؤكدات على أن تفضيل الموت على الحياة، (تعاب كلها الحياة) تتضح الرؤية باستعمال لفظ العموم (كلها) وتقديم الضمير عليها ليقصد الشمول على كل شيء فيها، ثم يرى أن يجعل رؤية أقل سوادا وتشاؤما، ويتمثل ذلك بمقارنة بين أوقات الحزن والفرح، فيرى أن سلبيات الحياة أكثر من إيجابياتها، بقوله:

إِنَّ حُزْنَاً فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا
فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ

بالمقابلة والتوازي تتمثل الرؤية التي لا ينفك عن الاعتقاد بها، وتتجلى رغبته في ترك الحياة وتفضيله الموت بتمثيل الفعل الذي فيه يتسخط من الحياة، ويطمئن إلى الموت ويرضى به، يقول:

ضَجْعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الـ
جِسْمُ فِيهَا، وَالْعَيْشُ مِثْلُ السُّهَادِ

مقابلة أخرى بين المتضادين (الموت والعيش)، يتجلى فيها تفضيل الموت على العيش، وتأكيد هذا القصد بلفظة (يستريح)، التي لم يذكرها إلا في موقف الموت. فضلا عن ألفاظ التشاؤم والسواد التي تستحوذ على النص الشعري، وهي كالأتي: (نوح باك، ترنم شادي)، (صوت النعي، صوت البشير)، (أبكت، غنت)، (قبورنا، قبور عاد، رفات العباد، لحد، لحدا مرارا، دفين على بقايا دفين، الفرقدن، زوال نهار، مدلج من سواد، تعب كلها الحياة)، (حزنا ساعة الموت، سرور ساعة الميلاد)، (شقوة، رشاد)، (ضجعة الموت، العيش).

يبدأ بمقارنة ومقابلة بين النقيضين، الفرح والحزن، التشاؤم والتفاؤل، النور، والظلام، الأمل، واليأس، الحياة والموت، وينتصر فيها للطرف الأول، الجانب المظلم المتشائم، ثم يعود للمقارنة، ليقصد أن يثبت اعتقاده، ليقصد أن يصل المخاطب شعوره، ليثبت له أن هذا هو الاعتقاد الصحيح، ويقنعه بذلك ليؤثر فيه، لأجل أن يهون عليه كل ما يمر به.

ثم يرثي الفقيه، ويختم القصيدة بفلسفته ورؤيته القاتمة التي هي زاوية واحدة، حجبت الرؤية النورانية للحياة، يقول في ختام النص:

كُلُّ بَيْتٍ لِلْهَدْمِ مَا تَبَتَّى الْوَرْدُ قَاءُ، وَالسَّيِّدُ الرَّفِيعُ الْعِمَادِ
وَالْفَتَى ظَاعِنٌ وَيَكْفِيهِ ظِلُّ الدَّ سِدْرٍ ضَرْبِ الْأَطْنَابِ وَالْأَوْتَادِ
بَانَ أَمْرُ الْإِلَهِ وَاخْتَلَفَ النَّأ سُنْ فِدَاعٍ إِلَى ضَلَالٍ وَهَادِ
وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِّيَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ
وَاللَّيْبُ اللَّيْبُ مَنْ لَيْسَ يَغْتَدِّ رَّ يَكُونُ مَصِيرُهُ لِلْفَسَادِ

تؤكد رؤية المعري في ختام نصه بأفعاله التقريرية والتعبيرية ويتجلى قصده بها، بعد أن تمثلت قصوده نفسها بالأفعال التوجيهية ليقنع المخاطب ويؤثر فيه، وهذا التمثيل يدفعه إلى استحداث ملة واعتقاد جديدين، وهذا الذي نتج عن اعتقاده وتفكيره السابق، الذي أثرت فيه أحداث الحياة، إذ إن المعري مرّ بتجربة قاسية، هي إصابته بعاهة العى منذ صغره، فلم يعد يرى العالم ببصره، لكنه رآه ببصيرته التي حجبت عنه الجانب المشرق.

ويستحدث فلسفة تتجلى فيها النظرة الدونية للكائن البشري، إذ هو في مرتبة أقل حتى من الحيوان، ويقصد أن النهاية واحدة، ولذلك فالأصل واحد، يقول:

وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِّيَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ

6. خاتمة

يبدأ المتنبي نصه بفلسفة الاعتقاد بحقيقة الموت وزوال الحياة التي هي معروفة للآخرين ليقصد بذلك التهوين على نفسه في المصاب الأليم الذي تعرض له في لمحة سريعة، في حين يجنح المعري إلى تمثيل أفعال رؤيته للحياة والعالم بعرض مطول يخاطب فيه الآخرين ليقنعهم ويثبت لهم ما يعتقد وما يؤمن به، وهو أن الحياة والموت عنده سيان، ولا يؤثر حزنهما ولا فرحهما، ويمثل هذا القصد بالمقارنة والمقابلة بين الثنائيات ليخلص إلى طغيان الجانب المظلم الأسود وهو الموت الذي فيه المستراح من شقاء الحياة.

- يندب المتنبي ويتوجع ويتفجع بموت جدته في عرض طويل بأفعال تعبيرية، تمثل أفعال الحزن والتوجع والتحسر والأسى لما حدث، في حين يجنح المعري إلى التأبين للمرثي، وذكر أفضاله ومآثره التي تبقى، وهذا يعكس فلسفته ورؤيته التي تمثلت في أن الموت أفضل من الحياة، وأن المرثي قد انتقل إلى دار الراحة وتخلص من دار الشقاء.

- يختم المتنبي مرثيته بفعل رفض الاستسلام للحزن والثورة على مشاعره التي تجعله ضعيفا، ليمثل قصده بعملية حوارية مغلقة بينه وبين نفسه، باستعمال أفعال توجيهية لقصد إلزام نفسه، وفيها قصد آخر هو إيصال المخاطب أنه أقوى، وأنه سينطلق، وسيحقق آماله ومآربه، في حين يختم المعري بإثبات اعتقاداته

وتأكيدهما التي بدأ بها نصه باستعمال الأفعال التقريرية والإخبارية، ليقصد رفض أي رؤية أخرى، ولإقناع المخاطب أن هذه هي طبيعة الحياة والعالم حوله.

- ينفرد المعري برؤيته للإنسان، ويستحدث فلسفة تتجلى فيها النظرة الدونية للكائن البشري، إذ هو في مرتبة أقل حتى من الحيوان، ويقصد أن النهاية واحدة، ولذلك فالأصل واحد، فلا يغتر الإنسان بمكانته، وهو آيل إلى الفناء منها، وسينتقل إلى حياة أفضل، أو العكس.

- التقت الرؤى والتصورات لكلا الشاعرين في الشعور بالظلم، إذ إن المتنبي يرى أن المجتمع ظلمه ولم يقدر مكانته، ولم يعطه ما يستحق فجعله ذلك دائم التطلع إلى ذلك، في حين أن المعري وبالشعور نفسه رأى أنه حُرْم من أشياء كان يستحقها، نتج عنها زهده في بشريته، والتطلع على الأثر الذي يُحدثه الكائن البشري.

7.المراجع

1. عبدالرحمن، عائشة. (1965). أبو العلاء المعري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.
2. السلفي، أبو طاهر. (2021). أخبار أبي العلاء المعري (عمر السنوي، جمع وتحقيق؛ ط.1). دار فارس.
3. زعيميان، تغريد. (2003). الآراء الفلسفية عند أبي العلاء المعري وعمر الخيام، الدار الثقافية للنشر.
4. سعد، سارة أحمد حسين. (2024). استراتيجيات خطاب القصد في شعر المتنبي-دراسة تداولية [أطروحة دكتوراه غير منشورة]، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة إب، اليمن.
5. علي، محمد محمد يونس. (2016). تحليل الخطاب وتجاوز المعنى نحو بناء نظرية المسالك والغايات، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
6. ختام، جواد. (2016). التداولية أصولها واتجاهاتها (ط.1). دار كنوز المعرفة.
7. يول، ج. (2010). التداولية (قصي العتابي، ترجمة؛ ط.1). الدار العربية للعلوم ناشرون.
8. صحراوي، مسعود. (2005). التداولية عند العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، (ط.1). دار الطليعة.
9. الورافي، نجيب. (2020). تمثيل القصد ونظام تأويله في الخطاب التداولي دراسة في القناع التمثيلي التحادثي في شعر البردوني، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية.
10. بوبعوي، بوجمعة. (2001). جدلية القيم في الشعر الجاهلي رؤية نقدية معاصرة، اتحاد الكتاب العرب.

11. المعري، أبو العلاء. (1957). *سقط الزند*، دار صادر.
12. ضيف، شوقي. (1987). *الرثاء* (ط.4). دار المعارف.
13. بوخالفه، إبراهيم. (2018). رؤية العالم في رواية (رأس المحنة) للروائي الجزائري عز الدين جلاوي، *مجلة دراسات معاصرة*.
14. حسين، طه. (د.ت). *شرح لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعري*، دار المعارف.
15. البرقوقي، عبدالرحمن. (2014). *شرح ديوان المتنبي*، مؤسسة هنداي.
16. شاكر، محمود محمد. (د.ت). *المتنبي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا*، مطبعة المدني، دار المدني.
17. السعيد، هادي. (2022). *فصول في التحليل التداولي. قراءات تطبيقية* (ط.1). مؤسسة دار الصادق الثقافية.
18. سليم، أودينة. (2009). *فلسفة التداوليات الصورية وأخلاقيات النقاش عند يورغن هابرماس* [رسالة ماجستير غير منشورة]، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، الجزائر.
19. موشلار، ج.؛ ريبول، آ. (2010). *القاموس الموسوعي للتداولية* (مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف: عز الدين مجدوب، ترجمة). دار سيتانرا، المركز الوطني للترجمة.
20. بليغ، عيد. (2017). *القرآن الكريم والتطبيق التداولي*، أفعال الكلام بين الجذور المعرفية والنص، *سياقات*.
21. أوستين، ج. ل. (2010). *القول من حيث هو فعل (نظرية أفعال الكلام)* (محمد يحياتن، ترجمة؛ ط.2). عالم الكتب.
22. عبد الرحمن، طه. (1998). *اللسان والميزان أو التكوثر العقلي* (ط.1). المركز الثقافي العربي.
23. لانج، جوتس هنده. (2012). *مدخل إلى نظرية الفعل الكلامي* (سعيد حسن بحيري، ترجمة؛ ط.1). زهراء الشرق.
24. علي، محمد محمد يونس. (2004). *مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب* (ط.1). دار الكتاب الجديد المتحدة.
25. دايك، ف. (2000). *النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي* (عبدالقادر قنيني، ترجمة). أفريقيا الشرق.
26. الرشدي، عامر سمار مفلح قعوب. (2024). *خطب التوابين: دراسة تداولية من خلال الأفعال الكلامية*. *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية*، 6(2)، 281-305.

<https://doi.org/10.53286/arts.v6i2.1947>

27. الشمري، عواد بن بايق. (2024). توظيف الأفعال الكلامية في ديوان الزمزمي المكي (ت: 976هـ): دراسة تداولية. *آداب للدراسات اللغوية والأدبية*, 6(4), 38-9. <https://doi.org/10.53286/arts.v6i4.2174>
28. بابكر، أفرح أبو الشير محمد. (2024). الأفعال الكلامية في خطاب التهنية بالعيد في البلدان العربية من منظور تداولي. *آداب للدراسات اللغوية والأدبية*, 6(3), 74-57. <https://doi.org/10.53286/arts.v6i3.2064>
29. حسان، عبدالرحيم صالح. (2021). الأفعال الكلامية في ديوان رواج المصباح. *آداب للدراسات اللغوية والأدبية*, 4(4), 76-40. <https://doi.org/10.53286/arts.v1i4.244>
30. الجفري، وفاء سليمان سعيد (2025). دور الفعل الكلامي في توضيح المعنى في معجم أساس البلاغة. *آداب للدراسات اللغوية والأدبية*, 7(2), 123-106. <https://doi.org/10.53286/arts.v7i2.2551>
31. واصل، عصام. (2020). الأفعال الكلامية في ديوان "أبجدية الروح"، مجلة طلائع اللغة وبدايع الأدب، 1(1)، 98-74.

8. References (In Latin letters)

1. Abd al-Rahman, A. (1965). *Abu al-Ala al-Ma'arri*. Egyptian General Institution for Authorship, News, and Publishing. (in Arabic).
2. Al-Salafi, A. T. (2021). *Akhbar Abi al-Ala al-Ma'arri* (O. Al-Sanawi, Ed.; 1st ed.). Dar Fares. (in Arabic).
3. Zaeimian, T. (2003). *Al-ara' al-falsafiyya 'inda Abi al-Ala al-Ma'arri wa 'Umar al-Khayyam*. Al-Dar Al-Thaqafiyya lil-Nashr. (in Arabic).
4. Saad, S. A. H. (2024). *Istiratijiyyat khitab al-qasd fi shi'r al-Mutanabbi: Dirasah tadawuliyyah* [Unpublished doctoral dissertation]. University of Ibb, Yemen. (in Arabic).
5. Ali, M. M. Y. (2016). *Tahlil al-khitab wa tajawuz al-ma'na nahwa bina' nazariyyat al-masalik wa al-ghayat*. Kunooz Al-Ma'rifa. (in Arabic).
6. Khitam, J. (2016). *Al-tadawuliyyah: Usuluha wa ittijahatuhā*. Kunooz Al-Ma'rifa. (in Arabic).
7. Yule, G. (2010). *Al-tadawuliyyah* (Q. Al-'Attabi, Trans.). Arab Scientific Publishers. (in Arabic).
8. Sahraoui, M. (2005). *Al-tadawuliyyah 'inda al-'Arab: Dirasa tadawuliyya li-af'al al-kalam*. Dar Al-Tali'a. (in Arabic).
9. Al-Warafi, N. (2020). Representation of intentionality in pragmatic discourse. *Journal of the University of Babylon for Humanities*. (in Arabic).

10. Bouba'iou, B. (2001). *Jadaliyyat al-qiyam fi al-shi'r al-jahili*. Arab Writers Union. (in Arabic).
11. Al-Ma'arri, A. A. (1957). *Saqt al-zand*. Dar Sader. (in Arabic).
12. Dayf, S. (1987). *Al-ritha'* (4th ed.). Dar Al-Ma'arif. (in Arabic).
13. Boukhalfa, I. (2018). Worldview in the novel *Ra's al-Mihna* by Abdelaziz Glaouji. *Contemporary Studies Journal*. (in Arabic).
14. Hussein, T. (n.d.). *Sharh luzum ma la yalzam li Abi al-Ala al-Ma'arri*. Dar Al-Ma'arif. (in Arabic).
15. Al-Barquqi, A. (2014). *Sharh diwan al-Mutanabbi*. Hindawi Foundation. (in Arabic).
16. Shaker, M. M. (n.d.). *Al-Mutanabbi: Risalah fi al-tariq ila thaqafatina*. Dar Al-Madani. (in Arabic).
17. Al-Saeedi, H. (2022). *Fusul fi al-tahlil al-tadawuli: Qira'at tatbiqiyya*. Dar Al-Sadiq Cultural Foundation. (in Arabic).
18. Selim, O. (2009). *Falsafat al-tadawuliyat al-suwariyya wa akhlaqiyyat al-niqash 'inda Habermas* [Unpublished master's thesis]. Mentouri University, Algeria. (in Arabic).
19. Moeschler, J., & Reboul, A. (2010). *Al-qamus al-mawsu'i lil-tadawuliyah*. National Translation Center. (in Arabic).
20. Balba', E. (2017). *Al-Qur'an wa al-tatbiq al-tadawuli: Af'al al-kalam*. Siyaqat. (in Arabic).
21. Austin, J. L. (2010). *How to do things with words* (M. Yahyaten, Trans.; 2nd ed.). Alam Al-Kutub. (in Arabic).
22. Abd al-Rahman, T. (1998). *Al-lisan wa al-mizan*. Arab Cultural Center. (in Arabic).
23. Lang, G. H. (2012). *Introduction to speech act theory* (S. H. Buhairi, Trans.; 1st ed.). Zahraa Al-Sharq. (in Arabic).
24. Ali, M. M. Y. (2004). *Muqaddima fi 'ilmi al-dalala wa al-takhattub*. United New Book House. (in Arabic).
25. Van Dijk, T. A. (2000). *Text and context* (A. Qanini, Trans.). Afrique Orient. (in Arabic).
26. Al-Rashidi, A. S. M. (2024). Repentant speeches: A pragmatic study through speech acts. *Arts for Linguistic & Literary Studies*, 6(2), 281–305. <https://doi.org/10.53286/arts.v6i2.1947> .(in Arabic).
27. Al-Shammari, A. B. (2024). Speech acts in Al-Zamzami Al-Makki's poetry collection. *Arts for Linguistic & Literary Studies*, 6(4), 9–38. <https://doi.org/10.53286/arts.v6i4.2174>. (in Arabic).
28. Babiker, A. A. (2024). Speech acts in Eid greeting discourse. *Arts for Linguistic & Literary Studies*, 6(3), 57–74. <https://doi.org/10.53286/arts.v6i3.2064>. (in Arabic).

29. Hassan, A. S. (2021). Speech acts in *Rwagh Al-Masabeeh*. *Arts for Linguistic & Literary Studies*, 1(4), 40–76. <https://doi.org/10.53286/arts.v1i4.244>. (in Arabic).
30. Al-Juhani, W. S. S. (2025). Speech acts in *Asas al-Balagha*. *Arts for Linguistic & Literary Studies*, 7(2), 106–123. <https://doi.org/10.53286/arts.v7i2.2551>. (in Arabic).
31. Wasel, E. (2020). Speech acts in *Abjadiyyat al-Ruh*. *Tala'i al-Lugha wa Bada'i al-Adab*, 1(1), 74–98. (in Arabic).

9. إخلاء مسؤولية بشأن استخدام الذكاء الاصطناعي التوليدي

تم إعداد هذه المخطوطة كاملةً بجهود المؤلفين أنفسهم، دون الاستعانة بأي من أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي (GenAI) في عمليات الكتابة أو التحرير أو الإعداد، وجميع محتوياتها ناتجة حصرياً عن عمل المؤلفين دون أي دعم أو مساعدة من تقنيات الذكاء الاصطناعي.

10. التصريح بعدم وجود تضارب للمصالح

نصرح نحن مؤلفو المقال بعدم وجود أي تضارب في المصالح فيما يتعلق بالبحث الذي استخلصت منه المقالة أو تأليفها أو نشرها.

11. مساهمة المؤلفين

تم أنجاز المقال بجهود ذاتية.

12. مصادر تمويل ودعم البحث

لم يتلق هذا البحث أي دعم من أي جهة.

13. بيانات المؤلف

الدكتورة سارة أحمد حسين سعد أكاديمية وباحثة يمنية متخصصة في اللغة العربية والنقد التداولي، من مواليد محافظة ذمار بالجمهورية اليمنية. حصلت على درجة الدكتوراه في اللغة العربية من جامعة إب عام 2024م بتقدير ممتاز، عن أطروحتها الموسومة بـ «إستراتيجيات خطاب القصد في شعر المتنبي: دراسة تداولية»، كما نالت درجة الماجستير في اللغة العربية من جامعة ذمار عام 2018م بتقدير ممتاز، برسالة بعنوان «شعر عروة بن الورد: دراسة تداولية». وتحمل درجتي بكالوريوس في اللغة العربية واللغة الإنجليزية من جامعة ذمار، إضافة إلى شهادة إتمام حفظ القرآن الكريم بتقدير ممتاز.

تعمل مدرسةً في كلية الآداب بجامعة ذمار منذ عام 2015م، وشاركت في تدريس عدد من المقررات في أقسام اللغة العربية والترجمة واللغة الإنجليزية، من أبرزها: النحو والصرف، نظرية الأدب، النقد الأدبي القديم، الأدب الجاهلي، علم الدلالة، وعلم المعاني والبيان، إلى جانب مقررات الكتابة باللغة الإنجليزية. كما أسهمت في التدريس بعدد من الجامعات اليمنية، منها جامعة السعيدة وجامعة الحكمة وكلية الحاسبات والمعلوماتية.

شغلت عدة مهام إدارية وأكاديمية، منها العمل مختصةً إدارية بقسم اللغة العربية، ومختصة كمنترول بكلية الآداب، ومختصة بقسم الترجمة. وتمتلك خبرة في التدقيق اللغوي والترجمة بين العربية والإنجليزية، إضافة إلى مهارات في استخدام الحاسوب والعمل الجماعي والاستشارات الأسرية والمجتمعية. كما شاركت في دورات تدريبية متعددة في التطوير الأكاديمي، والتدريس الجامعي، والحاسوب، واللغات الأجنبية.